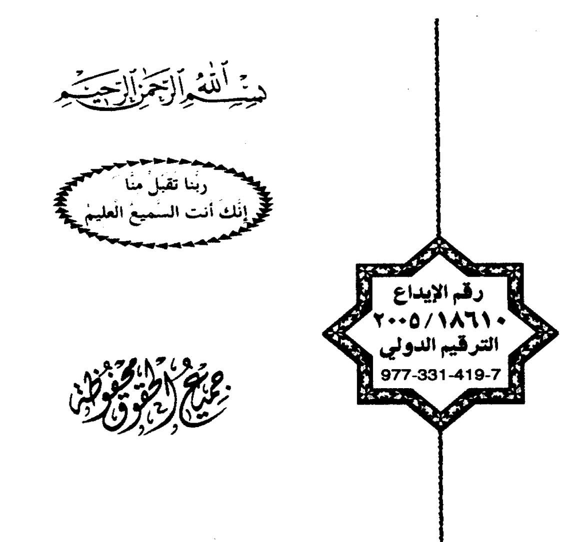


ورقة عمل لقادة الدعوة الإسلامية

د. بسام الزرقا
غفر الله له ولوالديه ولسائر المسلمين







دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع

١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

إهـــــداء

إلى كل قلب يدميه حال أمتنا.

إلى كل متوكل يؤمن بالوعد.

إلى كل عقل يبحث عن حل.

إلى كل ساعد لا يرضى بالعجز.

إلى كل مؤمن لا يستسلم لليأس.

أتقدم بهذه الورقة

المقدمــة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوز بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، ثم أما بعد:

ظاهرتي المد والجزر والموت والحياة من الظواهر الخالدة في هذه الحياة الدنيا. وهذا ينطبق على البشر فرادى وجماعات أمما وشعوبا، فلكل أمة أجل، وتلك الأيام تداول بين الناس. هذه حقيقة قرآنية يقر بها أغلب العقلاء.

القرن الميلادي الماضي سطرت فيه شهادة وفاة الخلافة الإسلامية دون وريث ، ولأول مرة في تاريخ الإسلام تحدث مثل هذه الفجيعة... نعم كانت الخلافة في حالة موت إكلينيكي لكن الإعلان كان له صدى مدوٍ، ولحقت بلاد المسلمين بأخواتها لتصبح تحت الحكم المباشر من الكافرين في معظم المعمورة.

ولكن إذا بلغ الليل تمام حلكته فلابد أن تظهر تباشير فجر جديد، المد يبدي نفسه على استحياء والجزر يقاومه بإصرار يرجو استدامة الحال، وها نحن الآن نشهد الربع الأخير من ذلك القرن.. إنها فترة السبعينات فترة الصعود المتسارع والمتنامي لظاهرة سميت (الصحوة الإسلامية) الذي كان له وقع بالغ التناقض على جبهتين: أنصار الإسلام وأعداء الإسلام، إنه الشعور بنشوة الأمل في عودة الحق السليب، وقلق الناهب القاتل يخشى أن تدب الروح عائدة إلى الضحية، إنه تناقض الفزع والأمل، ولكن العجيب أن طرفي النقيض جمعهما أمر واحد إنه المبالغة في تصور مآل هذه الصحوة، فباستثناء قلة من النابهين[١] في كل من

(١) ومن هؤلاء أوليفيه روا مدير الأبحاث بالمركز الوطني للعلوم السياسية بباريس الذي أصدر منذ أكثر من عشر سنوات كتابه « فشل الإسلام السياسي » والذي اعترض على طرحه الجميع تقريباً، لأن صعود التيار الإسلامي كان من القوة بحيث لم يقبل أحد ذلك العنوان المستفز، ولكن لما بدا واضحاً للعيان صدق توسمه وبدأ الكلام عن انحسار الظاهرة الإسلامية أخرج كتابه الثاني « عولمة الإسلام » ليبين فكرته كاملة والتي خلاصتها: نعم فشلت الحركة السياسية الإسلامية لكن الأسلمة مستمرة.

وعلى الجانب (المسلمين) شيخ مخضرم يترجى رجل الحركة الإسلامية القوى بالجزائر ألا يتدخل نفسه ذلك الفخ (الانتخابات البرلمانية) فيكون الرد: إننا أعلم بواقعنا.

دون أن يسأل نفسه: أين مركز القوة؟ هل هو في الصندوق أم في الثكنات؟

المعسكرين وقع الجميع في فخ الخلط بين الواقع الفردي داخل المجتمع والواقع المنظم لحركة المجتمع ككل.

وشتان هو الفارق بين التزام يلزم به الفرد نفسه والزام يرى المجموع أنه قد وقع على عاتقه.

الوقوع في هذا الفخ الموحد — الخلط بين واقع الفرد من حيث الخلق والنسك وواقع الجماعة السياسي— كان له رد فعل (يناسب موقعك من أحد المعسكرين).. مزيد من التحفز وإعداد العدة لوقف ذلك المد.. ومن الجانب المقابل بدأ الاستعداد لإقامة الأفراح..أفراح التمكين للإسلام والتخلص من الواقع الأليم.

(من تتبع الصيد غفل)

وهكذا وُلدت الكارثة وكانت الصدمة.. إنه الزلزال الذي لم يكتفِ بتدمير البناء المادي، بل تراه ينال من أسس القناعات ويحطم الآمال.

نشوة الحلم دفعت مراكز الثقل للحركة الإسلامية العربية بالوسط والمشرق و المغرب لمحاولة التوثب، توثب



كانت أرضيته واقع غير مدرك القرار إلى فضاء غير مستوعب المآل، هكذا كانت الكبوة، وما أقساه من شعور أن يستيقظ الإنسان من حلمه اللذيذ فيجد نفسه محبوس تحت حطام زلزال.

لكن الأشد قسوة من ذلك الزلزال هو رد الفعل العشوائي الذي حول النكبة إلى كارثة، هكذا سميت التراجعات مراجعات وخرج الشذاذ من الجحور ليعلنوها جلية: لا خلاف بين النظم السياسية الغربية الكافرة وصحيح دين الإسلام!! .. وظهر فقه جديد للتعامل إذا لم تقدر عليهم فانضم إليهم .. وفقه التملص من الشرع المسمى فقه المهجر صار هو الأصل.. ووصم المتمسك بثوابت القرآن والسنة بالجمود. . وصار لي النصوص استنارة واقعية ...الخ، وزايدت تلك الأصوات النشاز على منهج الفرقة الناجية التي لا يزال صوتها أبدا بفضل الله.

حال نرجو ألا تصدق عليها الحكمة القائلة: إن الساقط أثناء صعود الجبل لا يتوقف إلا عند السفح.

عقدي أم مادي

كيف حدث هذا وهل له سبب مفهوم، وهل السبب شرعي أم موضوعي؟

لم نُنْصَر هل لأننا لم ننصر الله حقاً؟ فإن الوعد لا يُخلف : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ [محمد : ٧] .

أم إن ذلك من جراء ذنوبنا :
﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : ١٦٥] .

أم أن ذلك لحكمة :
﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : ١٦]، ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ [آل عمران : ١٤٠]، ﴿ مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ... ﴾

[آل عمران : ١٧٩]



أم أن الأمر متعلق فقط بشيء موضوعي من تلك الأشياء التي لا يقر بغيرها من لا يؤمن بالوحي؟

أم أن الأمر متعلق بمجموع هذه الأمور وبنسب تختلف باختلاف الأحوال والشخوص؟ كما يذهب كاتب هذه السطور، وإن كان بمفهوم آخر يرى أن الأمر شرعي محض، ببساطة الشرع يأمر بالأخذ بكل الأسباب الموضوعية الممكنة ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ (٦٠)** ﴾ [الأنفال: ٦٠] فمن فرط في الموضوعي فهو بنص الوحي مخالف للشرع :(قال رجل للنبي ﷺ : أرسل ناقتي وأتوكل؟ قال : «**اعقلها وتوكل**» (قال الزين العراقي رواه ابن خزيمة والطبراني من حديث عمرو بن أمية الضمري بإسناد جيد بلفظ قيدها وتوكل وبه يتقوى) .

ومن خالف الشرع بالتفريط في السبب فأصابه الضرر حُمِّل فوقه الإثم وبهذا قد جاء الشرع : « من بات على ظهر بيت ليس عليه حجاب فقد برئت منه الذمة » . (خد د) عن علي بن شيبان . (صحيح) ٦١١٣صحيح الجامع .

وبعد أن أشرنا لمنهجنا في التعامل مع جدلية الشرعي

والموضوعي[١] نعود لتحليل ظاهرة انتكاس المشروع الإسلامي بالرغم من ذلك المد الذي لم يتوقف اندفاعه من جماهير غفيرة من البشر (مسلمين وغير مسلمين) نحو الإسلام[٢].

ها نحن نعود لتحليل هذه الظاهرة التي غررت بالكثيرين من أفراد المعسكرين المتنافرين، نقوم بذلك على طريقة المثال والاستفهام.

كيف تولد الكهرباء؟

البشر يولدون الكهرباء من مصادر شتى كالطاقة المائية أو التفاعلات الذرية، فهل لو كنت تملك كمية كبيرة من اليورانيوم أو العديد من المساقط المائية .. هل يعني ذلك أنك تحصلت على الكهرباء؟ بالطبع لا .. فأنت لا تملك أكثر من الفرصة، فرص لا أكثر ولا أقل.

---

(١) (الموضوعي) مصطلح حادث يراد به الحقائق الملموسة من غير الغيبيات التي يستخدمون لها مصطلح (الميتافيزيقا)، أما عند المسلمون فدائرة تمحيص الحقائق تشملهما.

(٢) الإسلام هو الدين الأكثر انتشاراً في الولايات المتحدة الأمريكية. هذا ما صرح به الرئيس الأمريكي السابق كلينتون، وهذه ظاهرة عالمية لا تختص بها أمريكا فقط.

فإذا لم تجد وسيلة لتحويل ما تملك إلى ما تطمح أضعت الفرصة وهذا هو أفضل الاحتمالات وإلافالعطش الذي يقنع بالسراب ليس له مصير إلا الهلاك.

إن العلاقة بين توجه أفراد المجتمع نحو الالتزام بالإسلام باعتباره مسئولية فردية وبين أن يكون ذلك المجتمع مجتمعاً إسلامياً هي علاقة لزوم وليست علاقة تلازم بمعنى أن الوصول لتلك الحالة ﴿حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]، وأن تصبح كلمة الله هي العليا.. تلك الغاية التي تتم بالامتثال للرسل و تحقيق الأيمان بالكتاب ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ..﴾ [البقرة: ٢١٣].

تلك الغاية يلزم لها بديهةً ذلك المسلم الملتزم بالواجبات الفردية لدينه.. لكن وجود ذلك الفرد لا يعني الوصول لتلك الغاية هكذا تلقائياً.

أسلفنا فيما سبق أن تحويل ما تملك إلى ما تطمح يستحيل إلا بوسيلة.. فما هي الوسيلة التي يتحول بها الالتزام الفردي إلى تمكين جماعي، وتحت أي باب من أبواب العلوم والفنون يقع؟.

السيمياء أم السياسة الشرعية ؟

الالتزام الجماعي للبشر باختيارات مسبقة وطريقة عمل محددة نحو غاية مستهدفة يدخل في نطاق أحد العلوم التي مارس الإنسان فنها منذ قديم الأزل .. إنه نطاق السياسة.

وإن كان اختيار الجماعة هو الإسلام وغايتها العليا أن تكون كلمة الله هي العليا بأن تجعل الدين كله لله، وكان مسلكها منضبطاً بالقرآن والسنة وسيرة من أُمِرنا باتباع سنتهم) ... «**فإنه من يعش منكم بعدي فسيري اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ...**» (حم د ت هـ ك عن العرباض بن سارية، ٢٥٤٩ صحيح الجامع)

إن تم هذا تحول هذا المصطلح الوضعي ذو الإيحاءات الوضيعة (السياسة) إلى مصطلح شريف سام (السياسة الشرعية) .

رمتني بدائها وانسلت

وهنا لابد من وقفة قصيرة لتحرير هذا المصطلح من قسمة الغبش التي تلحق به، حين نقسم الجماعات إلى

نوعين جماعات سياسية وأخرى تحرم العمل السياسي، والعمل السياسي يقصدون به هنا المشاركة في الانتخابات البرلمانية[١] فمن شارك فهو السياسي ومن حرم المشاركة فهو غير سياسي.

إن مثل هذه القسمة لعمر الحق محض تلبيس.

محاولة كيان جماعي للتأثير على كيان آخر هو في حقيقته سياسة، وضبط أفراد جماعة محددة بنوع ما من أنواع الضبط الجماعي هو سياسة، حتى لو كانت تلك الجماعة تُحَرِّم ذلك اللفظ (الجماعة) فضلاً عن تحريم (السياسة).

شعور أي مجموعة من البشر بتميز الذاتية (نحن وهم) وبأن لهم توجه عام واجب وبأن لهم ملزم مطاع، يعني ببساطة أنهم يمارسون السياسة، حتى لو كان من ضمن هذا التوجه العام تحريم نوع من أعمال العمل السياسي، إذن الحركات الداعية للممارسة والكيانات المعارضة لها كلهم يمارس السياسة بشقيها الداخلي والخارجي.

(١) هذا هو عنوان فخ يعد لنا الآن بمنتهى المكر ومن الحماقة أن تظن أن الحدأة ستلقي لك بالكتاكيت، ولعلنا نفرد للتحذير من اعتماد سياسة التنازلات للحصول على أوفر نصيب من الطعم الديموقراطي.

نعم قد تكون الممارسة بدائية أو عشوائية، بالفعل أو بالكف، بوعي أو بجهل، لكن مثل هذا الجهل لا يخرج أحد من تحت طائلة المحاسبة الشرعية التي تحكم مثل هذه الممارسات وما ينتج عنها من مآلات.

العلم أم العشوائية

الصحابة الكرام رضي الله عنهم كانوا يتحدثون العربية، فلما دبت العجمة إلى اللسان جاءت الروايات عن الخليفة الراشد علي رضي الله عنه بتكليف أبي الأسود الدؤلي لوضع قواعد ضابطة وهكذا ولد علم جديد.

ولما دبت الفتنة صار ابن عباس يدقق في الرواية تدقيقاً كان مآله وضع علم المصطلح.

وهكذا كلما ضعفت الملكة وهزلت الممارسة أو ظهرت حاجة أظهر المسلمون في المقابل علماً يضبط الخلل، هكذا ظهر علم الأصول والعروض والبلاغة والفقه.. الخ.

فما أحوجنا الآن لإحياء علم السياسة الشرعية، عسانا أن نجد سبيلاً للاعتبار من أخطاء الماضي ونجد لغة موحدة نتبادل بها النصح في الحاضر وسبيلاً للتخطيط وتوسم المستقبل.

وقد يقول قائل ولماذا نعقد الأمور ونخالف المألوف

فالأمر أبسط من ذلك، إنه يحتاج فقط لمزيد من الفهم والعزم .. نفهم الواقع بكل دقائقه وفي ضوء الإمكانات نحدد ما هو مستطاع .. هكذا نصل للقرار المحقق للمصلحة.

وعلى أصحاب التوجهات الشرعية ضبط هذه العملية بالشرع، أما أصحاب التوجهات البراجماتية النفعية فالضابط الوحيد عندهم هو ذات المصلحة الموضوعية(١).

إدراك الواقع

ولكن كيف تتم هذه العمليات: فهم الواقع، تحديد الإمكانات، تحديد الوجهة الكلية التي نُقَدِّر ما يمكن قطعه من الطريق إليها؟.

هذا هو كبد المعضلة التي تعاني منها الحركات الإسلامية، تلك الحركات الموزعة على المحطات القائمة على طول الخط الواصل بين طرفي النقيض (الشرع/ الميكافيللية).

وقد يظن البعض أن هذه الأمور يسيرة، ففهم الواقع على سبيل المثال يتم من خلال تتبع القنوات الفضائية والصحف العالمية والشبكة العنكبوتية والدراسات المنشورة

(١) المصلحة تبيح كاف أشكال التنازل من أجل الوصول، هذه هي فلسفتهم (في سبيل الإسلام يُضحى بكل شيء ولو كان دعائم الإسلام!).

أو المعدة المطلوبة وقد يضيف البعض شرطاً أرقى . . إنه الاحتكاك المباشر الذي يكسب خبرة ميدانية ويسمح بملاقاة كل عليم ببواطن الأمور .

هنا تكمن المعضلة الحقيقية، المعضلة هنا ليست في الوصول لفهم الواقع بمثل هذه الطريقة، إنما المعضلة هي ذات الواقع المدرك بالاقتصار على مثل هذه التقنية .

إن هذا الإدراك الذي يتم بهذه الطريقة هو إدراك ملتبس يروج فيه الزيف، فتختلط فيه التصريحات بالتمويهات، ومسافة ما بينهما قد تكون أبعد مما يفصل المشرق عن المغرب .

وتختلط فيه الأوهام بالممكنات فلا تجد حتى مقدار حد الشعرة يفصل بينهما، إدراك زائف لا تصطدم فيه الأماني بالوقائع إلا بعد فوات الأوان حيث يستحيل التراجع ونُجْبَر على دفع فواتير الخسائر .

إن عدم قدرتنا على إدراك الواقع هو أحد الأسباب الرئيسية لفقد القدرة على اتخاذ القرار الرشيد وعلينا أن نتحمل النتائج[١] .

(١) تحالف ١٩٥٢، أحداث سبتمبر ١٩٨١، انتكاسات فترة التسعينات هنا

الميزان والقرار

إن فهم الواقع لا يتم بجمع مفرداته لتكوين صورة كلية أو صورة تفصيلية .. إنما يكون ذلك بإخضاع مثل هذه الصور لميزان القياس والتقويم ثم التعديل حتى يتم تناغم مجمل الصورة مع مفرداتها على هيئة مجردة واضحة.

إن تحديد الوزن أو المسافة أو المكيال لا يتم بمجرد إحضار الموزون أو المقيس أو المكيل وإنما بإخضاع هذه الأشياء لمقياس وميزان ومكيال ... وبدون ذلك لا تستطيع اتخاذ قرار (اعتبار الشراء فرصة أو البيع خسارة، أو باستمرار المساومة أو بالبحث عن مخزن أكبر أو شراء مواسير أطول) .. الخ.

هذا بالنسبة لقرار مادي بسيط، فما بالنا لو كان القرار يتعلق بمصير بشر .. وما بالنا لو كانت العملية معقدة تتم تحت ضغوط من الترهيب والترغيب مع وجود الكثير من المشاركين خصوماً وحلفاء وخاملين .. مع الطبية الديناميكية لتفاعل قوى الواقع، واقتناص الفرص عملية قد

وهناك، انتخابات الجزائر، إعادة احتلال الشيشان، سقوط إمارة طالبان .. الخ.

يضيعها التعجل أو التمهل.

إنه أمر بدهي لابد أن يتفق عليه أصحاب الاتجاه الشرعي والاتجاه البرجماتي إن غياب المقياس والميزان يعني غياب أول مقومات القرار الرشيد[١].

فما ذاك المقياس الضابط (الميزان) الذي به تتم عملية تقويم الواقع (الوصول لطبيعته وحقائقه المجردة عن الأوهام مع تحديد الأوزان والحجوم والاتجاهات)، بل وبه يستطيع الحاذق توسم المآلات، وأن نجد به علامات للتعامل الرشيد؟

أصحاب المنهج الماركسي يجيبون بمجموعة من الضلالات تنتهي بحتميات، والفلاسفة يجيبون بخليط من الهذيان، وغالبية البشر يضبطون الواقع في أذهانهم بالعواطف الذاتية وخليط من الآمال والمخاوف.

أما نحن فنذهب لنجيب على هذا السؤال إلى المصدر الذي فصل فيه كل شيء: ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)** ﴾ [يوسف: ١١١]،

(١) إدراك الواقع هذه العملية الصعبة المعقدة هي في الواقع أسهل خطوات اتخاذ القرار!

﴿ ... وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴾ [الإسراء: ١٢]، هذا المصدر الخالد يأمر بالسير في دروب الأرض من أجل الاعتبار: ﴿ ... فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ ﴾ [الحشر: ٢]، ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [النور: ٣٤]، ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٩].

فالكل يجري وفق سنن: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨) ﴾ [آل عمران: ١٣٧-١٣٨].

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً (٤٣) أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤) ﴾ [فاطر: ٤٣-٤٤].

وهكذا نجد الإجابة جاهزة تسبق سؤالنا بمئات السنين وتسبق آخر ما وصل له أصحاب المنهج العلمي التجريبي (الاختباري) وتتفوق عليه ببيان نوعية أخرى من القواعد

(السنن والنواميس) – وإن رفضها كل أصحاب المناهج الأرضية – إنها السنن الشرعية ﴿ **سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً (٧٧)** ﴾ [الإسراء: ٧٧] . إنها السنن الشرعية .. إنها صورة شاملة كاملة تفسر وتتنبأ بالوقائع، يغفل عنها من غفل ويجد بعضها من جدّ وبحث: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٣٧) قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (٣٨)** ﴾ [الأنفال: ٣٦–٣٨] .

﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠)** ﴾ [آل عمران: ١٣٧–١٤٠] .

﴿ **الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ**

وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (٤١) ﴾ [الحج: ٤٠ -٤١].

منظومة السنن والنواميس

من تاريخ من سبقنا نتعلم، التاريخ تُفهم أحداثه باعتبارها نتائج ولدتها مقدمات بإذن الله.

إنها قواعد تُفسر لنا تماثل الأحداث حيناً وتغيرها أحياناً .. إنها السنن الكونية (الموضوعية) التي يتعلق بها عقل الكافر لنيل المجد .. والسنن الشرعية التي يعقل بها أهل السنة والجماعة الأحداث ويستنزلون بها النصر والتوفيق ويرون أن منها الفرض الشرعي باستخدام السنن الكونية.

وهكذا يخالف أهل السنة والجماعة الدراويش من الصوفية ومن أدعياء السلفية الذي يسلخون الكوني عن الشرعي ويخالفون أيضاً الميكافيللين من المسلمين الذين يعتمدون على السنن الكونية ويضحون بالشرعية.

على درب الهدى نسير

وتأمل هذا التكامل في السيرة النبوية وسيرة من أمرنا باتباع سننهم « ... **فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين**

الراشدين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ..»[١].

تأمل .. يتجلى لك هذا المفهوم، تأمل .. تراه سبيكة واحدة، تأمل .. ثم دع عنك سيرة الدراويش والنفعيين الذين ينطبق عليهم وصف الشعبي: تلك فتنة لم نكن فيها أتقياء بررة ولا أقوياء فجرة. وبناء عليه فيجب علينا أن نبحث عن هذه السنن في قرآننا الخالد وتاريخنا الماضي وأن نأتم بالصالحين ممن سبقنا في إيجاد سبل العمل الرشيد، وإلا فليس لمن يعرض عن هذا المنهج حق في قيادة الأمة، بل يحرم عليه قيادة من وثق به نحو النية، فمن تطبب بغير علم فهو ضامن[٢]، وإنما شفاء العي السؤال[٣].

السياسة الشرعية

ها نحن قد وصلنا إلى نهاية المقدمة التي نراها ضرورية لبيان غرضنا من هذه الورقات المسماة (أنعيد التاريخ نفسه؟) والذي يدور حول محورين:

الأول: هو تجلية ذلك الإنجاز الضخم لصلاح الدين

(١)حم د ت هـ ك، عن العرباض بن سارية، ٢٥٤٩ صحيح الجامع.

(٢)«**من تطبب ولم يعلم منه طب فهو ضامن**». [حسن] (د ن هـ ك) عن ابن عمرو، ٦١٥٣ صحيح الجامع.

(٣)«**قتلوه قتلهم الله ألم يكن شفاء العي السؤال**». [صحيح] (حم د ك) عن ابن عباس، ٤٣٦٣ صحيح الجامع.



الأيوبي حين استطاع تحويل الشراذم إلى تجمع يحقق إنتصار غاب قرابة القرن.

المحور الثاني: وتراه مبثوثاً في ثنايا عرض المحور الأول – هو التعرض لمفهوم [السياسة الشرعية]، مع بيان طبيعة العلاقة بين الشرع وعملية تعديل الواقع من منظور إعتبار السنن النواميس وموازين القوة، باعتبار أن ذلك هو مفهوم الأساس لذلك العلم.

وحسبي مجرد المحاولة، فإن وجدت أخي القارئ في الورق شيئًا ذا قيمة فلا تبخل على نفسك بدعوة مستجابة يكن لنا فيها نصيب(١)، وإن كانت الأخرى فعليك بدعاء المصيبة عسى أن يمن الله علينا(٢) بمن يزيح التراب عن كنزنا المطمور.

د. بسام الزرقا

dbassam333@yahoo.com

dbassam333@hotmail.com

---

(١) «دعاء المرء المسلم مستجاب لأخيه بظهر الغيب عند رأسه ملك موكل به كلما دعا لأخيه بخير قال الملك: آمين ولك بمثل ذلك». [صحيح] (حم م هـ) عن أبي الدرداء، ٣٣٨٠ صحيح الجامع.

(٢) «ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرا منها إلا أجره الله في مصيبته وأخلف الله له خيراً منها» [صحيح] (م هـ) عن أم سلمة (حم) عن أم سلمة عن أبي سلمة، ٥٧٦٤ في صحيح الجامع.

مدخل

ما أشبه الليلة بالبارحة:

الأرض أرض الإسلام، والذل ذل الطغيان، والاحتلال كأنه السرطان من بقعته يتمدد ليتوسع أو يقفز ليتوعد، والأمة أمة الإيمان تفيق على وقع الخطوب تستثار تصرخ وتصيح ولكنها من السكون وإلى السكون تعود كأنها في غيبوبة وليست هي خير أمة أخرجت للناس.

والقرآن عن واقع الحياة منحى لصالح العصبية الجاهلية والدعوة الفوضوية والمذاهب الضالة والمصلحون لا يكادون يملكون لهذا الطوفان دفعًا إلا من قلة تقارع وحدها في الميدان قد عجزت عن استجلاب معين، والمسلمين من حولهم بالملايين.

قد يقول البعض لماذا لا ننسى واقعنا الأليم؟ أو يرى آخر أن هذا وصف لماض معروف عندما اجتاح التتار الأرض كالسيل الهادر لا يلوي على شيء ولا يقف أمامه أحد، و قد



يظن غيره أن ذلك من قبلها عندما تم احتلال قلب الإسلام بواسطة الإمارات الصليبية التي جثمت على أرض الشام (سوريا ولبنان والأردن بالإضافة للأرض المقدسة بفلسطين) .

هذا الوصف العام المبهم سقناه عن عمد لأن غرضنا هو ربط الواقع الحاضر بالماضي الغابر لنستلهم العبرة من أجل المستقبل، فلابد أن نتعلم من سجل النجاح وسجل الفشل، إنه تاريخنا فمن أين نعرف طريقنا إن غاب عنا، ومن أين ندرك هويتنا الحقيقية إن غابنا عنه .

وكيف نجيب عن السؤال الهام أين الأمة؟ هل تودع منها؟ أم هي في غيبوبة تامة أم اختلطت علينا الأعراض وإنما هو "الإحباط"؟ إحباط من لا يلوح له أمل ولا يعرف له طريق أو عمل ولا يجد قائداً بارجاً .

ولكي نصل لإجابة عن السؤال الأهم أين السبيل لتهب واقفة كما كانت دائماً في شموخ تحمل (مصباح الهداية) راية الإسلام .

فهل يمكن أن نجد في تاريخنا ما يعين عمليًا على الوصول لمناهج بعث الأمة .

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) ﴾ [آل عمران: ١٣٧-١٤٠]

التاريخ قصص أم عبر؟

مما لاشك فيه أن التاريخ وإن كان مجموعة من القصص فهو أبدا لا ينفك عن العبر.

لكن الاستفادة من عبر التاريخ إنما تكون بحسب الكفاءة في تجريد الأحداث لتحصيل العناصر الأساسية ـ دون الغرق في بحار التفاصيل - ومن ثم إعادة الربط للوصول للقواعد، فالمقدمات المتشابهة تنتج نتائج متقاربة بقدر تماثل الظروف المحيطة في الغالب الأعم، فالكل يجري وفق سنن.

وبناء على تلك الملاحظة فإن على من واجه وضعا ما أن يتأمل ما سلف من الأوضاع لعله يجد الكثير ليفعل أو

يجتنب، فالسعيد من وعظ بغيره أو استفاد بتجارب من سبقه. لكن الأمر ليس بهذه البساطة فالجهد البشري يتأرجح بين الصواب النسبي والخطأ المطلق، وهناك من لا يستفيد من تجاربه الذاتية فأنى له و هذا الطريق.

للمعتبر مسالك وللغافل مهالك

هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن التاريخ الواحد تتعدد مواطن الاستفادة منه بحسب المشارب والتحديات، و ها نحن نعرض لعدة اجتهادات لمحل بيت القصيد في بحثنا هذا:

كتب الجنرال يادين رئيس أركان حرب الجيش اليهودي عام ١٩٤٨، في مجلة الجيش الإسرائيلي، فتحدث عن تقدم الجيش المصري بحذاء الساحل على محور العريش تل أبيب، ثم (قال إنه كان يعلم من دراسته لتاريخ الحروب السابقة على هذه الأرض أن فلسطين دار لها بوابة ذات مصراعين: أحدهما غزة والثاني بير سبع، و أنه من الخطورة بمكان لأي جيش أن يتقدم من الجنوب إلى الشمال أو بالعكس وهو يجتاز هذه البوابة ما لم يكن في يديه كلا

المصـراعين. فلمـا وجد الجيش المصـري اجتـاز غزة بهـدف الوصول إلي تـل أبيب دون أن يعني بالاحتفاظ في يده ببير سـبع، وجـد أن فـرصتـه قـد سنحت، فـجـمـع القـوات الإسرائيلية المتوفرة في يده في بير سبع ليقطع على الجيش المصري التقدم خط رجعته.

ثم عـاد يقـول إنه كـان قـد قـرأ في دراسـة للحـروب الصليبية، أن صلاح الدين الأيوبي عبر من العريش إلي بير سبع على طريق لـم يكن جـزء كـبيـر منه معـروفـا في ذلك الوقت، فذهبوا يبحثون عنه حتى وجدوه مطمورا في الرمال .... فمدوا فوقها الشباك، ثم عبروا من بير سبع إلى عسلوج إلى العـوجـة إلى أبو عـجـيلة، فطلعت على مؤخـرة الجيش المصري بالعريش في حركة تطويق سريعة، وبها مركز الإشارة لجـميع القوات المصرية)[١]. و لك أن تتصـور ما حدث بعد ذلك فهو يغني عن الاسترسال في النقل.

هكذا أوقع الغـريب بصـاحب الدار حـفـيـد صـاحب الانتـصار، فـالعـبـرة لست مـيراث الغـافل إنما هـي حـصـادا المجتهد الباحث.

(١) الطريق إلى المدائن، أحمد عادل كمال، ١٥.

نعود مرة أخرى إلى التاريخ، البعض استفاد منه كمصدر للفخار لإعادة الثقة بالنفس، فهو يقول:

ملكنا هذه الدنيا قرونا وأخضعها جدود خالدون

البعض الآخر اختار نفس التاريخ محل بحثنا أبرزوه من أجل أغراض، كأن يستلهم الشباب منه قدوة، أو أن تتكشف حقيقة أنصاف الرجال فاقدي الديانة العملاء لأعداء الإسلام، وبظهورها تسقط الشرعية المزيفة.

ولكن ماذا عن القادة؟ ما موضع العبرة لهم؟

هناك من يراها في ذلك النص الرائع الذي يصف فيه ابن شداد القائد من قريب في صورة خالية من رتوش التزييف عارية عن الأغراض والأطماع، يقول القاضي ابن شداد: (وكان رحمه الله شديد المواظبة على الجهاد، عظيم الاهتمام به، ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد دينار ولا درهما إلا في الجهاد و الإرفاد لصدق وبر في يمينه، و لقد كان الجهاد قد استولى على قلبه وسائر جوارحه استيلاء عظيما، بحيث ما كان له حديث إلا فيه، و لا اهتمام إلا برجاله ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث

عليه و لقد هجر في محبته أهله و ولده و وطنه وسكنه، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة و يسرة..، وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحثه على الجهاد، وأنا ممن جمع له كتابا جمعت فيه آدابه و كل آيه وردت فيه، وكل حديث.. وكان رحمه الله كثيراً ما يطالعه.. وكان الزمان شتاء والبحر هائجا شديداً و موجه كالجبال.. ، وكنت حديث عهد برؤية البحر فعظم ذلك عندي، واستخففت رأى من يركب البحر..، فبينما أنا في ذلك إذ التفت إلي وقال.. إنه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد وأوصيت وودعت وكبت هذا البحر إلى جزائرهم اتبعهم فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت، فعظم وقع هذا الكلام عندي.. ومنعته فلا ينبغي أن يخاطر بنفسه فقال: أنا أستفتيك ما أشرف الميتتين؟ قلت الموت في سبيل الله قال: غاية ما في الأمر أن أموت أشرف الميتتين، فانظر إلى هذه الطوية ما أطهرها و إلى هذه النفس ما أشجعها وأجسرها اللهم إنك تعلم أنه بذل جهده في نصرة دينك رجاء رحمتك فارحمه، وأما صبره فلقد رأيته بمرج عكا و هو على غاية من مرض اعتراه



بسبب كثرة دماميل كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبتيه بحيث لا يستطيع الجلوس..، و كان مع ذلك يركب من بكرة النهار إلى صلاة الظهر، و هو صابر من شدة الألم و يقول: إذا ركبت يزول عني ألمها حتى أنزل) ابن شداد.

هكذا كان صلاح الدين، هكذا كانت نفسه المتوثبة لنصر دين الله لا تبالي بالتضحيات الجسام لا تبالي بالآلام، إن كثيرين يرون أن سبيل الإفاقة لأمة الإسلام من كبوتها هو بعثة قائد أهم ما يميزه على الإطلاق هذه الصفات الرائعة، إن هذا التصور لو ساد فأنه يعني في الحقيقة أن الشقة جد بعيدة بين الأمة و ذلك الأمل.

إن هذه الصفات اللازمة بداهة لكل قائد مسلم ليست هي الصفات التي تميز صلاح الدين عن غيره، فأمة المصطفي لم تخلو بحمد الله أبدا في كل عصر و في كل مصر من رجالات بهذه الصفات.

إن موطن العبر النافعة من سيرته شئ آخر هو عين موضع الخلل في واقعنا المعاصر هو عين ما تخوف منه الأعداء منذ غروب شمس الخلافة حتى الآن.

يقول الداهية هاملتون جب (عميد المستشرقين، عضو

مجمع اللغة العربية، مستشار الإمبراطورية البريطانية) : (إن الحركات الإسلامية تتطور عادة بصورة مذهلة، تدعو إلى الدهشة، فهي تنفجر انفجاراً مفاجئا قبل أن يتبين المراقبون من أماراتها ما يدعوهم إلى الاسترابة في أمرها. **فالحركات الإسلامية لا ينقصها إلا وجود الزعامة، لا ينقصها إلا ظهور صلاح الدين جديد**. (وجهة الإسلام)

ولما صرح دكتاتور البرتغال سالازار : (إن الخطر الحقيقي على حضارتنا هو الذي يمكن أن يحدثه المسلمون حين يغيرون نظام العالم. سأله أحد الصحفيين: لكن المسلمين مشغلون بخلافتهم ونزعاتهم. أجاب: أخشى أن يخرج منهم من يوجه خلافتهم إلينا) دمروا الإسلام أبيدوا أهله.

فهم لم ينسوا الدرس القاسي، ومازالت براكين الحقد تغلي في قلوبهم، فها هو الجنرال غورو بعد معركة ميسلون، كأني أنظر إليه بعين تحجر بها دمع الأسى، فها هو يتوجه لقبر صلاح الدين يركله قائلا: (ها قد عدنا يا صلاح الدين... فأين أحفادك منك) صحوة الرجل المريض– موفق بني المرجة / ٢٧٦.

لكن الأسى لا يلبث أن ينقشع بشروق شمس الأمل

أن يذهب إلي قبره من يقول له: ها نحن قد جاوزنا البحر، لقد تحقق حلم صلاح الدين، فلابد أن يتحقق الوعد الحق: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ⁽٨⁾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [سورة الصف:٨-٩] ولابد أن تتحقق البشرى: «**إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِيَ الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ**» [رواية مسلم]

و«**لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَلاَ يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ إِلاَّ أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ وَذُلاًّ يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ**» [رواية أحمد]. . . . ﴿ . . . وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٢١].

نعود إلى أصلنا مرة أخرى، ما هو موطن العبرة الأساسية من ملحمة صلاح الدين؟ الإجابة الصحيحة يرشد لها سؤال آخر، ما هي المعضلة التي نعيش وما الأمل الذي نرجو وما علاقة كل ذلك بتلك المرحلة، التي يمكن سردها كالتالي: تسلط الكافر الخارجي، هيمنة المرتد الداخلي،

التشرذم، الفشل، ثم وحدة أمام العدو فانتصار، هذا هو موطن البحث.

باب: المشكلة والحل

موطن العبرة هو حقيقة المشكلة ومنطلق الحل

ما هي حقيقة المشكلة وما هو منطلق الحل؟ يرى البعض أن المشكلة كانت في الاحتلال الأجنبي لأثرى منطقة عربية (فلم يكن البترول قد اكتشف بعد) والحل هو عمل عسكري.

المشكلة هي إذن احتلال أرض عربية والمطلوب إعادتها للعرب من خلال عمل عسكري (حطين) وما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة، وموطن العبرة واضح أن تعمل الأمة على امتلاك أسباب القوة المادية وأن تطرح خلافاتها جانبًا حتى استرداد الأرض، فهكذا فعل صلاح الدين وهذا هو طريق صلاح الدين.

للأسف الشديد هذه الصورة الشوهاء لتجربة صلاح الدين هي السائدة الآن في الأدبيات التي تعالج موضوعه، وبالرغم من كونها محض تزييف فإنها قد سادت بفعل عدة قوى روجت لها، منهم الرافضون للحل الإسلامي رفضًا



جـذريًا ومنهم أصحاب المذهب الشعوبي الحديث (كأصحاب الولاء الجاهلي من القوميين أو الوطنيين ذوي الولاء الأكثر ضيقًا).

إن الحقيقة الجلية كما تظهر من أقوال وسيرة صلاح الدين أنه لم يكن يعرف هذه الأشكال من شرانق الضلالة فضلاً على أن يسجن أمته بها إنما هو في حقيقته مسلم غايته إعلاء كلمة الله، وتطهير أرض الإسلام من عدو الدين وإقامة الشريعة الحقة شريعة الإسلام، صلاح الدين لم يكن ليسجد للأرض، إنما كان يسجد على الأرض، شتان هي الأرض عند هؤلاء وأولئك.

وهل يظن أحد أن الكردي يضحي بنعيم الملك وثروته من أجل ما يسمى بالعروبة؟! أو أن يخاطر بحياته من أجل القدس التي لم يطأها إلا يوم فتحها، فما علاقة ذلك بالوطنية؟!

إنما هو منطلق واحد جمع فيه عماد الدين زنكي (التركي) وابنه نور الدين محمود من قبله والظاهر بيبرس المملوكي من بعده وغيرهم من كل الأجناس والألوان ليس لهم من رابط إلا تلك الغاية «وإسلاماه».

إنه نفس المنطلق الأول الذي انطلق به ومنه الصدر

الأول، هاهو ربعي بن عامر يجيب قائد فارس المبرز الذي يسأل في تعجب ما الذي جاء بكم؟ فيجيبه: «إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

إنها غاية واحدة انطلق بها صدر خير الأمم – سلفنا الصالح – ومن تبعهم من أهل السنة والجماعة، وفي كل وجه كانت هي وجهتهم:

أبي الإسلام لا أب لي سواه إن افتخروا بقيس أو تميم

هذه واحدة أما الثانية: إن عز هذه الأمة وسيادتها معلق بهذا المنطلق فليس في تاريخها بطوله وعرضه نقطة واحدة مضيئة أو مرتقى عز بين أمم العالم أجمع إلا وكان عمادها وأساسها ذلك الدين الخالد الإسلام، وحين جربت غير ذلك الطريق فإن كل الحلول المستوردة أو الملفقة لم تنجح إلا في إضافة الأسماء تلو الأسماء في سجل الخزي والفشل، ولن نستدل بآية أو حديث نناظر به من يعرض عن الوحي (العلمانيين) سواء كانوا من الشعوبيين (القوميين) أو ممن

يجعل هوى النفس دليله (الليبراليين) أو من لا يثق في هواه فهو يفرق بين الحق والباطل والصواب والخطأ بهوى الأكثرية(الديمقراطيين) . ونقول لهم : لا تكابروا ولماذا ترفضون أن نجعل قوميتنا هي الإسلام ووطننا هو أرض الإسلام والنور الذي نميز به بين الحق والباطل هو القرآن وبه نحكم ﴿ **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [البقرة: ٢١٣]، ونصل لأرشد أمرنا بالشورى .

ولربما جهل الفتى أثر الهدى والشمس بازغة لها أنوار

(لقد كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام فمهما ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله هكذا قال عمر بن الخطاب . و ﴿ **كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا** . . ﴾ [فاطر: ١٠] .

تقرير هاتين المقدمتين هام جداً لبيان الفارق بين أصحاب الحل الإسلامي والحلول الجاهلية (سواء كانت فجة أو مرتدية عمامة الإسلام) .

هذا من جانب، ومن جانب آخر بيان الجزء المشترك

(الموضوعي) الذي يشترك فيه أصحاب المنهج العلمي الإسلامي وأذناب المنهج العلمي الغربي . (راجع أطروحتنا في التقرير الاستراتيجي الأول للبيان) .

أعراض عديدة لمرض وحيد

أرض الإسلام المقدسة المباركة جاثم عليها عدو الملة الإسلامية على شكل إمارات صليبية استيطانية ينعم بالقوة الذاتية والخيرات الشامية ومن خلفه خطوط إمداد تصب في شريانها قارة (أوربا) .

هذا هو التوصيف الخارجي الظاهر للمشكلة كما تبدو للعيان، فيا هل ترى ما هو السبب الكامن وراء تلك الظواهر؟ هل هو تفوق تقني (تكنولوجي)؟ أم زيادة نفير وعتاد؟ بالطبع لم يكن في ذلك العصر فجوات تقنية واسعة. وطالما حقق المسلمون الانتصارات تلو الانتصارات بالرغم من أن ميزان القوى لم يكن في صالحهم.

إذن السبب – بالأساس – لا يمكن نسبته لجهة العدو، إنما لابد في البحث عن تغير في ذات بنية الأمة الإسلامية التي طالما جرعت عدوها من قبل الهزائم ذات العيار الثقيل.



تبدل الحال بعد ذلك لابد أن يقود الفكر لمحاولة الوصول للتبدل المكافئ في واقع أمة الإسلام، فما الذي تغير في شأنها لتصبح بهذا الضعف والذلة من بعد القوة والعزة بالرغم من ازدياد عددها و وفرة ثرواتها؟

نعم إنها الغثائية، إنها نفس الإجابة التي أجاب بها النبي الهادي ﷺ عن ذات السؤال عندما تنبأ لصحابته الكرام بأمثال هذه الحالات: «**يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ الأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا قَالَ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ قَالَ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ يَنْتَزِعُ الْمَهَابَةَ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمْ الْوَهْنَ قَالَ قُلْنَا وَمَا الْوَهْنُ قَالَ حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**» [رواية أحمد]

حب الدنيا وكراهية الموت هي نتيجة طبيعية لضعف العقيدة فإذا أعرض المسلمون عن الآخرة تلك الغاية المجمعة لقلوبهم ولجهدهم وتفرقت بهم أغراض الدنيا والتنافس من أجلها، سواء كانت ثروات أو زعامات أو شهوات، يؤول بالجميع للتنازع والشتات، فهذا رسول الله يبشر ويحذر «**فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ فَوَاللَّهِ لاَ الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ**

أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»

[رواية البخاري]

والتنازع هو أبو الفشل ﴿ **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾

[الأنفال: ٤٦]

داء الإعراض عن الدين له أعراض عديدة – منها الذل – لكن ليس له سوى علاج واحد يصفه لنا رَسُولَ اللَّه ﷺ بقوله: «**لَئِنْ أَنْتُمْ اتَّبَعْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ وَتَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةَ وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّه لَيُلْزِمَنَّكُمْ اللَّهُ مَذَلَّةً فِي أَعْنَاقِكُمْ ثُمَّ لاَ تُنْزَعُ مِنْكُمْ حَتَّى تَرْجِعُونَ إِلَى مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ وَتَتُوبُونَ إِلَى اللَّه**». [رواية أحمد]

ليس هناك ثمة علاج إلا العودة للإسلام والاجتماع على شرع الله. إنه التوحد على التوحيد ولا سبيل البتة غير ذلك.

هذه الحقائق الشرعية نجد أن الواقع والتاريخ يصدقها أيما تصديق بطول الزمان والمكان وهكذا تكون العاقبة مهما طال زمن الاختبار والابتلاء والتمحيص.

نعود إلى العصر، فبدلاً من التوحد نجد التشرذم

والاختلاف على الدنيا وخفوت نور التوحيد نتيجة لظهور التحريف أو الإعراض أو حتى المحادة والمضادة سواء كانت صريحة في عتو جبابرة أو مستترة في مراوغة منافقين.

هذا بالنسبة للدين أما في نطاق السياسة فنجد تشرذم سياسي تحت قادة وزعماء إن تركوا لبعضهم فهم متشاكسون، وإذا بان عدوهم فهم عاجزون، وإن جاءهم تهديد فهم مستسلمون، ولحسم خلافاتهم هم بعدوهم مستعينون.

وواقع عموم الأمة ليس أحسن منهم حالاً تشرذموا عقديًا على ملل ونحل وفرق بديلة للفرقة الناجية التي عناها رَسُولَ اللَّه ﷺ بقوله: «**افْتَرَقَتْ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً فَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَافْتَرَقَتْ النَّصَارَى عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَإِحْدَى وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَتَفْتَرِقَنَّ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً فَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ هُمْ؟ قَالَ: الْجَمَاعَةُ**» [رواية ابن ماجه]

وبهذا نقص المدد للطائفة المنصورة الدائمة الموصوفة بأنها «**لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ لاَ يُبَالُونَ مَنْ خَالَفَهُمْ أَوْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ**» [رواية أحمد].

وتحت دعوة التشيع لآل البيت (صلى الله على محمد

وعلى آل محمد) أثمرت شجرة السموم التي زرعها عبد الله بن سبأ وتسربل المبتدعة والمنافقون والباطنيون والحاقدون بهذه العباءة الشريفة حب آل البيت، وهي ملاحظة كشف عنها الإمام الشافعي الذي قال: ما ناظرت أحد من أهل الأهوال إلا وادعى حب آل البيت.

هكذا تفرقت الأمة قلبًا وجسدًا، وغاب عنها مفهوم الولاء والبراء فصارت أشبه بمريض نقص المناعة المكتسبة (الإيدز) ومثل ذلك المريض تزلزله أضعف الميكروبات والجراثيم فما بالنا بقوة مثل قوة الصليبيين سواء كانوا قدماء أو محدثين.

هذا هو أس المشكلة غياب الأمة عن صحيح دينها وأس الحل هو مراجعة ذلك الدين أو كما قال الإمام مالك: «إن آخر هذه الأمة لن يصلح إلا بما صلح به أولها».

ولكن ما السبيل العملي لتلك المراجعة؟، بل ما طبيعة وماهية العلاقة بين ذلك الدين والواقع والحياة؟ هذا هو السؤال.

باب: الإسلام منهج الحياة

كفاية الدين

زعمنا سابقًا - وسوف ندلل - أن سبيل صلاح الدين الأيوبي هو دين الإسلام، وغايته إعلاء كلمة الله وتطبيق شرع الله وإذا كان الأمر كذلك فمن الطبيعي أن يكون الحل والبرنامج مستمد من هذا الدين العظيم الإسلام.

وهنا قد يتشكك البعض في كون الإسلام يصلح لإعداد برامج عملية أو يخاض به صراعات ضارية، ونحن نلتمس العذر لأمثال هؤلاء الذين شبوا فوجدوا نظمهم قومية، ومناهج تعليمهم من وضع (دانلوب) الأبيض أو الأسود، وإعلامهم علماني يروج للقيم الغربية التي تحصر الدين في علاقة بين العبد وربه، وأسعدهم حظًا من يوسع الدائرة قليلا لتشمل الآخرين، وترى خيارهم يحافظ على فروض العبادات يتحلى بحسن الخلق ومكارم الشيم ويثق في دينه ثقة تامة طالما كان في مجاله (مجال المعنويات والعقائد والعبادات والخلق) أما أن تشمل دائرته مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والتربوية والسياسية وبه تحل معضلات الأمة فهذا شيء عجيب!

هؤلاء وهؤلاء في الحقيقة مساكين فقد ظنوا الدين

(دروشة) أهازيج آهات وصراخ وترنحات وانكسار واعتزال، وغابت عنهم حقيقة الإسلام كما جاءت في القرآن والسنة وتطبيق صدر هذه الأمة ولم يجدوا في الوحيين إلا مادة يتناظر بها فقهاء العبادات، وغابت عنهم السيرة النبوية كتمثل حي لواقع ذلك الدين الذي يقود الأمة والفرد نحو الفلاح في الآخرة وقنطرتها الدنيا. ولهذا بسط ليس الآن محله.

ومن ولد في مجمع نفايات (زبالة) يصعب عليه أن يصدق بوجود الأزهار البهيجة العطرة ولربما كذب عيناه وأنفه حتى حين.

تحليل المشكلة هو أول الحل

مرة أخرى ما هي المشكلة؟ إنها سيطرة عدو الإسلام على قدس الإسلام وأرضه وقهره للأمة، والسبب المباشر في ذلك هو التشرذم والذي هو في حقيقته فرع لأصل، ألا وهو ضعف تمثل شمولية دين الإسلام.

﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [سورة المائدة: ١٤]



وهنا لابد من حل لأصل المشكلة وفروعها من خلال ترياق لا يعرض عن أمر السماء ولا يغفل وقائع الأرض، أو بعبارة أخرى يجمع بين السنن الشرعية والكونية ودون أي انفصام. هذا الانفصام الذي يسقط فيه الدراويش عندما يغفلون الواقع، والذي يحاول أن يسقطنا فيه العلمانيون عندما يعرضون عن الوحي. الانفصام الأول لا يضمن الفلاح إلا في الآخرة، والانفصام الثاني يضمن الخيبة في الدنيا والآخرة.

البرنامج الذي يخرج من هذا المنظور الشامل والمتكامل هو الوحيد الجدير بأن يوصف بأنه إسلامي وهذه النظرة هي في الحقيقة أحد أهم الفروق بين الإسلام وغيره من المناهج الأرضية والأديان السماوية المحرفة.

مرة أخرى إذن لابد من علاج أصل الداء جنبًا إلى جنب مع علاج أهم الأعراض: التشرذم. ولكن كيف تتشرذم أمة و هي تحت تهديد عدو خطير شرس (وهي الحالة التي توحد أمم الأعداء فضلاً عن الأصدقاء، تأمل تحالف الماركسية والرأسمالية لمواجهة العدو المشترك النازية أثناء الحرب العالمية الثانية كمثال).

إذن هناك أسباب موضوعية تجعل الوحدة السهلة في التصور نظرياً بعيدة المنال عملياً.

تحليل هذه الأسباب يضع في أيدينا الإجابة عن السؤال: ما الذي يجب علاجه عملياً؟ وماذا يجب أن نفعله الآن؟ ومن خلال هذه الدراسة سوف نعرض لهذه الأسباب التي يمكن تصنيفها في خمسة محاور متداخلة:

(١) تعارض العقائد والمذاهب.

(٢) تناطح المصالح.

(٣) غياب رأس جامع لشتات القادة وأهل الحل والعقد والكوادر، سواء كان على هيئة فرد أو مؤسسة.

(٤) غياب البرنامج العملي الحائز على القبول العام.

(٥) تباب جهود الأمة كنتيجة لتداخل ما سبق وغياب هيمنة المؤسسات التربوية والإعلامية الرشيدة.

مشاكل بهذا الحجم والنوعية تجعل محاولة الوصول لخلطة علاج واحدة بها يتم التوحيد العقدي والتوحد السياسي والتربوي للأمة وقادتها على زعامة وبرنامج عملي يحظى بالقبول الجماعي ويغطي الطموح الفردي (بالإجابة على هذا السؤال: أين مكاني وماذا على وماذا لي؟).



مثل هذا الترياق يبدو الحصول عليه شبه مستحيل خصوصًا وهو يحتاج قوة تفرضه أمام قوى المقاومة بالداخل والخارج.

لكن الأمة قد فعلتها عبر جهود مضنية متراكمة توجت على يد أحد أبنائها، إنه صلاح الدين، ولقد جاءت خلطة الترياق من مصدر واحد إنه ذلك الدين العظيم الإسلام. فكيف فعلها؟ وكيف تعامل مع القوى من حوله وهو يحمل كأس الترياق؟ وما هي البدائل التي كانت من حوله؟ وهل نستطيع أن نحقق نفس الإنجاز؟ أنعيد التاريخ نفسه؟

الإسلام هو الحل

مرة أخرى، ما هو أس المشكلة و ما هو الحل؟ أسها غياب الإسلام (المتمثل لا المسطور) و هذا الغياب بدوره القي بظلاله على كل المناحي (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في السماء فبما كسبت أيديكم...). فما الحل؟ يسير على من يسر الله، العودة إلى الدين، تجلية المسطور و تمثل المطلوب، هذا لو تكلمنا عن فرد هدي للطلب، وفق للعمل، رزق العزم، لكن الأمر يصعب إذا تعلق بآخر، ويصبح جد عسير إذا تعلق بآخرين، فماذا لو تعلق بأمة.

هنا العودة للدين تتطلب ما هو أكثر من البلاغ والتعليم المجرد،فلن تكتمل هذه العملية إلا بالتربية للوصول للتزكية ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٥١]، هذه التربية لا تحدث في فراغ بل لابد من بيئة أبدا لا تخلو من صراع الحزبين.﴿ ... وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴾ [الفرقان: ٢٠] ﴿ ... ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد: ٤]. إذا لا بد من كيان له قوة كافية لإحداث التأثير بالدرجة المؤذنة بالتغيير.

وهذا الأمر ليس شئ إضافي للدين – من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب – بل هو أصل بذاته ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

و القوة تبدأ بالأحب إلي الله المؤمن القوي و لكل مقام مقال ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد: ٢٥]

أولي الأيدي والأبصار

إذن عودة الدين تتطلب معالجة ذات وجهتين:

الأولى: تجلية الأصول تجلية صحيحة و لا تصح إلا طريقة سلف الأمة (الصدر الأول ومن سار على دربهم) قَال النَّبيِّ ﷺ : «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ يَجِيءُ مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَتُهُمْ أَيْمَانَهُمْ وَأَيْمَانُهُمْ شَهَادَتَهُمْ**» [رواية البخاري].

الثانية: معالجة عموم المكلفين بحسب الواقع لدفعهم لخيرهم بالترغيب و الترهيب (سياسة) على وفق المعالجة الأساسية (الأولي) وبهذا يصبح اسم المعالجة الثانية السياسة الشرعية. وفي الحديث: «**عجبت لأقوام يساقون إلى الجنة في السلاسل و هم كارهون**» [حسن ٣٩٨٣ صحيح الجامع].

إذن هناك طرفان لابد منهما للقيام بالدين ضل عنهما من ضل عن منهج السلف وهذا عمر وعثمان رضي الله عنهم جميعا ينسب لهما: «إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن». [ولا يصح مرفوعا]

طرفان من اقتصر على الأول فقط جمع بين الإثم

والفشل. طرفان من اهتم بالثاني بغير انقياد للأول ضل وأضل. والسعيد من هدي لطريقة السلف الصالح، ومن جمع كان نتاجه بقدر ما في الطرف الأول من نقاء وإتباع وبقدر ما في الطرف الثاني من إخلاص و كفاءة، فرضي الله عن الشيخين أبي بكر و عمر. وتأمل قصة طالوت تدرك الطرفين. (لنا فيها بحث مشترك)

باب: الأيوبي وعصره من منظور الشرع والسياسة

ماذا عن احتياجاتنا

في هذه الوريقات سوف نتعرض للطرف الثاني من طرق معالجة واقع الأمة.

وبالرغم من كون كيانات العاملين في حقل التشرذم الإسلامي حتى الآن ليست ممكنة في غالب المعمورة، إنما هي قوى وكيانات تحت القهر أو في أحسن الظروف في موقع النضال لا التمكن، فإن الدرس محل الاختيار هام ومفيد، لأنه ينصب في الأساس على كيفية التعامل مع القوى داخل الصف والمعسكر الواحد وليس عن طريق مواجهة العدو الخارجي، وإن كان هذا الموضوع جدير بالبحث بدلا من التفاعل بأسلوب رد الفعل والعشوائية.

نعود مرة أخرى إلى تجربة صلاح الدين وسوف نرى سوياً لأي مدى يمكن للحركة الإسلامية – أعني تلك التي تسعى للتغيير المنشود بشيء آخر غير الأماني المجردة أو الانتظار الساكن لخروج مهدي أو الاعتماد على اليقين المطلق في الوعد الصادق المشروط، دون اعتبار لهذه الشروط – أن تنتفع بهذه التجربة وسوف نقيم سويًا مخاوف أعداء الإسلام من تكرار هذه التجربة هل هي حقيقية؟ أم هي تمثل لأسطورة (دون كيشوت)؟ .

صلاح الدين والطرفين؟!

فماذا عن صلاح الدين والطرفين؟ بالنسبة للأول هو متابع أكثر منه مجدد ولعل السبق يكون لرجال أمثال نظام الملك و ابنه جعلهم الله من أهل الشهادة آمين، ولعل الحظ الأوفى يكن لرجال منهم نور الدين محمود أنار الله له فوق الصراط، آمين، لكن هل يمكن إزالة شوائب الأجيال إلا بعالم نقي تقي من ذوي الأيدي والأبصار؟ على أية حال خفت صوت معركة تمحيص مذهب أهل السنة والجماعة وكانت معركة العصر هي بين من نسب نفسه للسنة ضد باقي الفرق .

الرقع والراتقون

نعود للداء والدواء، هذا الداء اللعين (البعد عن الإسلام) أدى إلى مضاعفات خطيرة سممت كل المجالات: (أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّه ﷺ فَقَالَ: «**يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلاَّ فَشَا فِيهِمْ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلافِهِمْ الَّذِينَ مَضَوْا وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلاَّ أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلاَّ مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنْ السَّمَاءِ وَلَوْلاَ الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلاَّ جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ**» [رواية ابن ماجه]، وعلى المستوى السياسي تجلى في صور منها تنحية الشريعة الذي افرز التشرذم وهو الأب الشرعي للتنازع والفشل، فكانت سطوة العدو الخارجي وسيطرة المرتد الناطق بالشهادة من الباطنية وغيرهم.

ولننظر سويا للواقع السياسي الناتج (كانت وفاة السلطان ملكشاه عام ٤٨٦هـ/ ١٠٩٢م بداية لتفكك دولة

السلاجقة حيث دب النزاع بين أبنائه، وانقسمت الدولة خلال السنوات الخمس التي تلت إلى خمس ممالك متنافسة هي: سلطنة فارس وعلى رأسها بركياروق الذي سيطر على بغداد. ومملكة خراسان وما وراء النهر وعلى رأسها سنجر. ومملكة حلب وعلى رأسها رضوان ابن تتش. ومملكة دمشق وعلى رأسها دقاق بن تتش. وسلطنة سلاجقة الروم وعلى رأسها قلج بن أرسلان. وفي عام ١١٠٤م انقسمت سلطنة فارس إلى قسمين.

وفي نفس الوقت تعرضت بلاد الشام إلى انقسام آخر، وظهرت وحدات سياسية عرفت باسم الأتابكيات: كأتابكية دمشق، وأتابكية الموصل. بعض هذه الأتابكيات صغير جداً لا يتعدى أسوار مدينة أو قلعة واحدة[١].

واستمرت علاقات الشك والريبة والطمع تحكم هذه الدويلات، فدخلت في صراعات وحروب تكاد لم تخل منها سنة واحدة، وانعكست هذه الصراعات على الرعايا من عامة المسلمين فكانوا يتعرضون للإيذاء والنهب والتفكك الاقتصادي والاجتماعي. وكثيراً ما استغل

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص ١١٠.

الأعداء من الخارج هذه الخصومات القائمة بين رؤساء الدويلات المسلمة، فهاجموا البلاد وفتكوا بأهلها، وهذا ما فعله الصليبيون عام ٥٠٩هـ[١].

وفي داخل كل دولة من هذه الدويلات السياسية المجزأة، كان أمراء الجيش وكبار القادة يقودون الانقلابات والثورات ويبيعون ولاءهم للسلاطين حسب الأعطيات والهدايا. كذلك كان الجند حيث صارت الجندية عندهم وسيلة للارتزاق واستغلال فرص الاضطرابات للنهب والغنائم والعطايا، وهذه كلها من الظواهر التي تطفح بها كتب التاريخ المعاصرة آنذاك كابن الجوزي وابن الأثير وابن كثير وغيرهم.

كذلك استغلت قبيلة بني مزيد البدوية على الضفة الغربية لنهر الفرات ظروف الانقسام والتجزئة، فاتخذت بقيادة شيخها - صدقة بن منصور بن دبيس بن مزيد الأسدي - من مدينة الحلة مقراً لها عام ١١٠١م، وأقامت إمارة لها احترفت الغارة والنهب خلال فترات الاضطراب

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص ١٧٨ - ١٧٩ .

والفتن. ولم يتردد أمراؤها في محالفة الصليبيين فيما بعد[١].

ولقد تعاظمت شرور هذه الإمارة في زمن أميرها دبيس المتوفَّى عام ٥٢٩هـ. فقد شن حروبًا عديدة على الخليفة العباسي في بغداد وفي المناطق المجاورة من العراق وبلاد الشام حيث وصفه ابن تغري بردي بقوله:

«وكان شر أهل بيته، يرتكب الكبائر ويفعل العظائم، ولقي منه الخليفة والمسلمون شرورًا كثيرة، وأبطل الحج وأباح الفروج في رمضان. وكانت أيامه ٦٧ سنة إلى أن قتله السلطان مسعود السلجوقي في ذي الحجة لسنة ٥٢٩هـ»[٢].

أما أمراء الحجاز فكانوا يتلونون بين العباسيين والفاطميين، وكانوا يقتلون الحجاج ويأخذون أموالهم وخاصة أمير مكة محمد بن أبي هاشم[٣].

وإلى جانب هذا التفكك الداخلي، دخلت هذه

(١) عاشور، مصدر سابق، ص ١١٥ .
(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص ٢٥٦ .
(٣) المصدر نفسه، ص ١٤٠ .

الدويلات مع الدولة الفاطمية في صراع مرير استنفذ طاقاتها المادية والبشرية، فقد استطاعت الدولة الفاطمية منذ القرن الرابع الهجري أن توطد نفوذها في مصر وجنوب الجزيرة العربية، ومضت في سياستها الرامية إلى تقويض الخلافة العباسية واجتثاث الفكر الإسلامي السني واستبداله بالفكر الشيعي. وفي سبيل ذلك راح دعاتها في شرق العالم الإسلام وغربه يدعون إلى إسقاط الحكومة السنية، ويبشرون بالعدل والرخاء اللذين سيعقبان دخول عامة المسلمين في طاعة الخليفة الفاطمي. واستطاع هؤلاء الدعاة التأثير في صفوف العامة والجيش، وتحريك الفتن حتى استطاعوا في عام ٤٥٠هـ القيام بانقلاب عسكري في بغداد نفسها بقيادة البساسيري الذي أعلن عزل الخليفة العباسي ودعا للخليفة الفاطمي، وراح يقتل قيادات السنة وعلماءها مدة عام كامل. ويصف عماد الدين الأصفهاني الأثر الذي أحدثه انقلاب البساسيري هذا فيقول:

«وفي هذه الفترة تمت فتنة البساسيري، ودخل بغداد سادس ذي القعدة سنة ٤٥٠هـ. وخرج سادس عشر ذي القعدة سنة ٤٥١هـ. وكانت سنة سيئة كادت تكون لنور

الله مطفئة، فإنه دعا إلى الدعي بمصر مصراً، ولم يجد الخليفة بمقره في دار الأمانة مقراً، وصلب البساسيري رئيس الرؤساء أبا محمد بن المأمون رسول الخليفة، وقتل أصحاب قريش بن بدران عبد الرزاق أبا نصر أحمد بن على، واختل نظام الإسلام واعتلت دار الإسلام، وطالت غربة الإمام وهالت كربة الأنام»[١].

واستمر البساسيري يحكم بغداد باسم الفاطميين حتى قدوم السلاجقة الذين قضوا على فتنة هذه وأنقذوا الخلافة العباسية والعقيدة السنية. وهنا اتخذت الحكومة الفاطمية سياسة جديدة، إذ تحالفت مع الحركة الباطنية الإسماعيلية، ومضى الطرفان في تأليب عامة المسلمين وإثارة الفتن وتنفيذ الاغتيالات. وقد استغل مؤيدو الباطنية الانقسام الواقع في صفوف السلاجقة لتوطيد نفوذهم ونشر دعوتهم، فاستولوا عام ٤٨٨هـ/ ١٠٩٤م على قلعة «شاهدز» بالقرب من أصفهان وهي من القلاع الحصينة والمهمة في مناطق السلاجقة مما زاد في قوة الباطنية.

(١) عماد الدين الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، اختصار الفتح البنداري (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٨)، ص ١٨.

وأصبحت هذه القلعة مركزًا للتخطيط ومنطلقًا للقضاء على من يناوئ دعوتهم أو يقف في طريقها[١].
لقد ذهب ضحية الاغتيالات الباطنية عدد كبير من رجال الدولة السلجوقية كالوزير نظام الملك وولده[٢]، وفشل السلاجقة في القضاء على هذه الفرقة التي ظلت تثير الفتن وتنشر الرعب والفزع في أنحاء العالم الإسلامي الشرقي حتى قضى عليها المغول عام ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م.

أما في الجانب الغربي - بلاد الشام - فقد استمر مؤيدو الباطنية يبثون الرعب ويحيكون مؤامرات الاغتيال. وعندما احتل الصليبيون فلسطين والسواحل السورية راحت الباطنية والفاطميون يستعينون بأمراء الصليبيين وملوكهم ويعقدون معهم المحالفات ضد العالم السني. وقاموا - فيما بعد - بمحاولتين لاغتيال السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي نجا من المحاولة الثانية بأعجوبة). هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس د. ماجد عرسان الكيلاني / ٨٤-٨٧ .

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٤٠٣ - ٤٣١ .
(٢) المصدر نفسه، ص ٤١٨، ٢٠٤ - ٢٠٥ .

وتوالت جهود الرجال كل بحسب ديانته وقوته وعقليته: كربوقا، اقسنقر البرسقي، جكرمش، سقمان بن أرتق، شرف الدولة مودود بن التونتكين، نجم الدين ايلغازي..... وهذا عماد الدين زنكي ذو المجهود الوافر والعقل الماكر لإقصاء المنافسين والخصوم من أجل الحصول عل الملك اللازم لقهر العدو - نفس الأسلوب الذي تسير على دربه الكثير من الحركات الإسلامية فيما بينها الآن دون تدبر - ويتبعه على طريق الجهاد ابنه العملاق نور الدين محمود آل زنكى الذي كانت له وصفته الخاصة، وصفه رائعة لكن موطن العبرة منها لا محل لها في هذه النكتة.

لابد من مؤسسات

الملك نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي - ذلك الإمام في اتباع الشرع وفي الجهاد - يرسل أسد الدين شركوه ويعينه بابن أخيه صلاح الدين الأيوبي الذي يخرج لمصر وهو كاره، ويلقى جند نور الدين محمود من التوفيق بالقدر الذي يصير به شركوه صاحب الأمر والنهى بمصر، ولكنه لا يكاد ينعم بذلك حتى يدركه هادم اللذات،

ليؤول الأمر من بعده لصلاح الدين ثم تتوالى الأحداث فالساحة الآن بها كيانات منها كيان آل زنكي، ومصر تحت سلطان صلاح الدين التابع أدبيا لنور الدين والتابع رسميا للخلافة الفاطمية التي يسقطها صلاح الدين لتعود مصر مرة أخرى سياسيا لحظيرة أهل السنة.

ويأتي القدر (٥٦٩ هـ - ١١٧٤م) - الذي لا يغيب أبدا - فيغيب عميد آل زنكي في عصر قد عرف المؤسسات الخيرية و الشرعية كالبيرامستانات والمدارس والأوقاف....الخ و قد غابت عنه المؤسسات السياسية التي كانت في العصور الأولي مثل: مجلس الخلافة، مجالس الشورى، طبقة ولاة الأمصار، مجالس الحرب الميدانية، القضاء المستقل، طبقة الزعامات والوجهات المتدرجة...الخ، غابت المؤسسات وانتكس الوضع نحو مفهوم السلطة المشخصة.

بغياب نور الدين محمود عميد آل زنكي غاب التوتر الذي كان يغلف بالمجاملات والملاينات، فالأول كان يخاطب رجل مصر القوي باسم (اسفسهلار)، والثاني

يتهرب عن الالتقاء برجل الشام القوي مبديا الحجج التي لا يقبلها الأول الذي يعلن أنه سيسير إليه بالجيوش؛ لكن يحسب لهذين العملاقين أنهما أبداً لم يصلا لحد الصدام الفعلى، هذا الصدام الذي أبدا لا يكون له إلا نتيجة واحدة وهن المسلمين و إهدار طاقاتهم إنها النتيجة المؤكدة بغض النظر عن العصر أو المصر.

توعد نور الدين لصلاح الدين لم يقابل من صلاح الدين بأي رد فعل من نفس النوعية؛ فهل يتعلم قادة العمل الإسلامي هذا الرشد؟ وهل يحذو الساعون بالفتن حذو والد صلاح الدين (نجم الدين أيوب) الحكيم ومستشاره ابن شداد بدلاً من إن يكونوا مرتزقة الصراع بين كيانات المسلين؟.

و يعلق صاحب الروضتين: (قلت: ولو علم نور الدين ماذا ادّخر الله – تعالى – للإسلام من الفتوح الجليلة على يد صلاح الدين من بعده لقرّت عينه، فإنه بنى على ما أسسه نور الدين من جهاد المشركين، وقام بذلك على أكمل الوجوه وأتمها – رحمهما الله تعالى –. (٢٨٤) الروضتين لعبد الرحمن المقدسي: الاختصار المفيد ذو الفهرس الفريد للدكتور محمد بن حسن بن عقيل.

انتكاسه نحو التشرذم

نعم غاب التوتر لكن ميلاد ذلك الحدث اقترن بتوءمه ألا وهو الفراغ الضخم الذي ظهر بتشرذم تركة آل زنكي اعظم كيان كان ينصر الإسلام ويواجه أعداء الأمة رافعا لواء مذهب السنة، غاب عميد آل زنكي مخلفا ورائه كوادر، قادة، ذرية، كيانات تقر بالولاء لهذا الاسم آل زنكي ومن ثم ورثت الرفض لصلاح الدين، وهي غير مؤهله لعمل إلا بطريقة آل زنكي وتحت قيادة آل زنكي أو امتداده.

ذلك في عصر ارتبطت الظاهرة السياسية بمفهوم السلطة المشخصة كما أسلفنا، حيث تتمحور السلطة السياسية في شخص معين وامتداده الشخصي كالذرية والقرابات، هذه الظاهرة التي باتت سمة العصر كانت تشكل عقبة كؤد أمام استمرار الأمة لاستكمال طريقها وأصبحت عقبة كؤد أمام توحيد الصف، فليس ثمة مؤسسات يتصور معها إمكانية اندماجها مكونة مؤسسة أكبر تسع الجميع بل هناك شخوص تستحيل بداهة أن تندمج مكونة عملاق واحد.

وهذه نقطة فارقة يجب ألا تُغفل حين ننتقل من عبرة

صلاح الدين إلى تركيبة دواء الإصلاح المنشود الذي نمهد له بهذه الدراسة و لا محل لبسطه.

نعود للماضي فما العمل المناسب لهذه الأجواء والظروف، فلنستمع إلي جيب وهو يوصف المشكلة وتصوره للحل الذي تم: (ونتج أول ما نتج عن موت نور الدين أن تجزأت القوة العسكرية المركزية التي كان قد أوجدها وتفسخت، حسب ما اقتضاه النظام العسكري السياسي. فاستولى أقرباؤه في الموصل على ولايات الجزيرة وتجزأت جيوشه الشامية بسبب تنافس القواد من حول ابنه القاصر الملك الصالح.

فكان لابدّ من إعادة ما حققه نور الدين، من البداية وعلى نحو مباين. ولما لم يكن ثمة أمل في إيجاد خلف كفء لنور الدين بين آل زنكي، فكل محاولة لإحياء البناء الذي أوجده نور الدين من أية ناحية بدأت كان لابدّ لها من أن تبدأ أولاً بالتصدي للإمارات الزنكية القائمة، وإذا كان صاحب مثل تلك المحاولة من الطراز الصحيح، وهو يرجو آخر الأمر أن يكسب التأييد من حركة (إعادة التسلح الخلقي)، فلا ريب في أنه كان سيلقى مقاومة من زعماء تلك الحركة شعوراً منهم بالولاء لذكرى نور الدين.

إذن ما دامت الظروف قد جعلت إعادة تكوين قوة عسكرية مركزية في الشام مهمة مختلفة عن مهمة نور الدين وأصعب منها من بعض الوجوه كان لابدّ كذلك من أن تختلف أساليب من يقوم بتلك المهمة وصفاته عن أساليب نور الدين وصفاته.

وكان من الجائز ألا تتحقق تلك المهمة إطلاقاً. لكن إن لم يكن بدّ من تحقيقها لم يكن سبيل ذلك، حسب حكمنا، إلاّ أحد أسلوبين: الأول هو دمج الكيان الزنكي كله في دولة عسكرية قوية من الخارج (كأن تقول مثلاً: امتداد سلطنة سلاجقة الروم أو قيام دولة جديدة في الشرق فكلاهما كان أمراً ممكناً حينئذ). والثاني هو البناء على أسس الوحدة الأخلاقية التي وضعها نور الدين، وتقوية تلك الأسس إلى حد بالغ بحيث يضطر الكيان الذي أقامه نور الدين إلى أن يخدم أهداف تلك الوحدة.

وتدل المظاهر الخارجية الخالصة على أن صلاح الدين أخذ بالأسلوب الأول، والواقع أن سر نجاحه يرجع إلى أخذه بالأسلوب الثاني وتنفيذه.

ومن المؤكد أن هذا كان يتطلب بناء دولة شاسعة تمتد

من كـردسـتـان وديار بكر إلى النوبة واليـمـن، ومن أراد الوصول إلى الغاية كان عليه أن يوجد الوسائل، فالظروف التي كانت تكتنف مهمته وزمانه لم تكن تتطلب شيئاً أقل من هذا. لكن منزلة صلاح الدين ومناقبه الشخصية، والروح التي أخذ بها مهمته، والأساليب التي استخدمها، كانت تختلف اختلافا كلياً عما لدى مؤسسي الدول العسكرية الكبرى وعما أبرزوه من منزلة ومناقب وأساليب). [دراسات (١٢٩)].

لكنه (جيب) لم يفصل كيف فعلها صلاح الدين؟! أما نحن فلن نشغل البال لنبحث أضن بذلك مكراً أم تركه عجزاً؟ بل نستعين بالله ونفصل.

باب: صلاح الدين في مفترق الطرق

البدائل أمام صلاح الدين

لقد كان أمام صلاح الدين عدة بدائل لمعالجة هذا الوضع الجديد:

١- أن يحاول المحافظة على المكاسب التي أدركها (لقب السلطنة المحلية (مصر) متعيشا مع الواقع كما هو، وله

أسوة في آخر الحكام العبيدين، فما الذي يدفع ملك أن يعمل خارج حدوده ما لم يتهدد سلطانه.

٢- الدعوة العاجلة لاتحاد كل من تلفظ بالشهادة الموافق مع المخالف بقايا الرافضة مع الباطنية، ولما لا وهم ينطقون بالشهادة، فلنجتمع على ما اتفقنا عليه وليعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه (في الأصول والفروع). حتى يتسع الإطار للكافة، وهكذا يلتحم الماء بالهواء ولتوقع هذه الاتفاقات في بلاد (السماسم).

٣- الاعتماد على النفس على القوة الذاتية المجردة لكيانه الخاص ومواجهة حاسمة لأعداء الدين.

٤- استبعاد وتحجيم كل القوى الداخلية وإقصاء الكوادر المتربية خارج حضانته، الاستيلاء على مواقعها بعد إبادتها، البناء على نظافة ثم المواجه الحاسمة بعد ذلك.

صلاح الدين لم يفعل الأولى، وإذاً لكان مكانه المزبلة مزبلة التاريخ. ولم يفعل الثانية وإلا دخل التاريخ من باب آخر باعتباره أحمق كبير. وأما الثالثة أو الرابعة فلو كان فعلها - والله أعلم- لكان هناك آخر هو صاحب حطين.

إذاً ماذا فعل صلاح الدين؟.

المسطور و التعبد والتعبيد

لعلنا لم ننس بعد طرفا المعادلة :

أ- الأصول الشرعية (الكتاب والسنة) والعمل على استجلائها وتمثلها الذاتي .

ب- السياسة الشرعية لإعلائها وإقامتها على الكافة .

والصورة المثالية إن يتم ذلك على وفق طريقة السلف على منهاج أهل السنة والجماعة في كل منهما .

لا توفيق إلا باتباع

بالنسبة للطرف الأول هو سار كما أسلفنا على الدرب الذي رميت بذوره منذ أمد ، فهو يبني ويرعى المدارس ، ويهتم بسماع الحديث الشريف ، بل ويَسمعه بين الصفين ، ويُسمعه ، ويتخذ بطانة من العلماء (ويذهب إلى العلماء ويحضر دروسهم ،.. تردد على الشيخ أبى طاهر السلفي بالإسكندرية ، ويداوم الحضور عنده لسماع الحديث ، وكان القاضي كمال الدين الشهرزوري من كبار العلماء والوزراء في عهد نور الدين ولما تولى صلاح الدين أقره على ما كان عليه من تعيين القضاة ، رغم أن كمال الدين ظن أن السلطان سيعزله لم كان بينهما من مخاصمة في عهد نور

الدين، وفي سنة ٥٧٧ عين السلطان ميقاتاً لسماع الأحاديث النبوية وجمع به أهل العلم والعلماء، ومن العلماء المقربين من صلاح الدين علي بن إبراهيم بن نجا الدمشقي الحنبلي وهو الذي كشف مؤامرة العبيديين للانقلاب على صلاح الدين، ومنهم نجم الدين الخبوشاني الفقيه الشافعي، وهو الذي شجع صلاح الدين على إنهاء الدولة العبيدية ..، بنى له صلاح الدين مدرسة.. ومن الفقهاء الأمراء الفقيه عيسى الهكاري.. قال القاضي بن شداد: وكان يجلس للعدل في كل يوم أثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة، وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً..) [العبدة (٩٤)] ومن أراد أن يتقرب إليه يتقرب بالبحوث الشرعية في الجهاد، وها هو يستكمل المسيرة التي بدأت لإظهار مذهب السنة على ما عداه من المذاهب. (وقد أمر ولده الظاهر وهو بحلب أن يقتل الشهاب السهروردى لم علم عنه من الشعوذة والانحراف عن الدين).

ولم يكن ليوفق في سياسته الشرعية إلا ببذل الجهد في القيام بواجبات الطرف الأول، وهذه سنة شرعية: أنه لابد من الدخول في السلم كافة حتى لا يستفحل التشرذم

وحتى يلم الشمل، لأن نسيان جزء من الشرع مفض لشيوع العداوة والبغضاء ﴿ **وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ** ﴾ [المائدة: ١٤].

فماذا عن العبد المسلم صلاح الدين؟ يقول ابن شداد: (وأما الصلاة فإنه كان شديد المواظبة عليها بالجماعة، حتى أنه ذكر - رحمه الله - أن له سنين ما صلى إلا جماعة، وكان إذا مرض يستدعي الإمام وحده ويكلف نفسه القيام ويصلي جماعة، وكان يواظب على السنن الرواتب، وكان له ركعات يصليها إن استيقظ بوقت من الليل وإلا أتى بها قبل صلاة الصبح، وما كان يترك الصلاة ما دام عقله عليه، ولقد رأيته يصلي في مرضه الذي مات فيه قائماً، وما ترك الصلاة إلا في الأيام الثلاثة التي تغيب فيها ذهنه، وكان إذا أدركته الصلاة وهو سائر نزل وصلى، وأما الزكاة فإنه مات - رضي الله عنه - ولم يحفظ ما وجبت عليه به الزكاة... وأما صدقة النفل فإنها استنفدت جميع ما ملكه من الأموال...). [(٥١٦) (٥١٧) الروضتين]

(وكان شديد الرغبة في سماع الحديث، ومتى سمع عن شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير فإن كان ممن كان

يحضر عنده استحضره وسمع عليه وأسمع من يَحضره في ذلك المكان من أولاده ومماليكه والمختصين به، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالاً له، وإن كان الشيخ ممن لا يَطرق أبواب السلاطين ويتحامى عن الحضور في مجالسهم سعى إليه وسمع عليه، تردّد إلى الحافظ السِّلَفي بالإسكندرية وروى عنه أحاديث كثيرة، وكان يحب أن يقرأ الحديث بنفسه، فكان يستحضرني في خلوته ويحضر شيئاً من كتب الحديث، ويقرأ هو فإذا مرَّ بحديث فيه عبرة رق قلبه ودمعت عينه). [(٥٢٠) الروضتين]

هذا عن العبد صلاح الدين أما المسئول صلاح الدين فقد أخذ بطرف الخيط الذي نسجه المجاهد نور الدين محمود رحمه الله فهو يبني المدارس الشرعية ويكرم العلماء. هذا هو الطرف الأول فماذا عن الطرف الثاني في الحقيقة لقد أجاد وجدد صلاح الدين ثم أجاد وجدد.

باب: السياسة الشرعية

المذهب اليجبي

جل البشر يجد في نفسه القدرة على حل أعقد المشاكل من خلال علاج سحري فوري مضمون، طبعًا

يختلف هذا العلاج من مشكلة وأخرى، ومن معالج إلى معالج إلا من كلمة هي مفتاح أساس الحل إنها كلمة [يجب أن] وهي ظاهرة يشترك فيها جنرالات المقاهي من العامة وساسة العالم الثالث من القادة، هذه الكلمة السحرية تجعل علاج أي مشكلة لا يستغرق أكثر من نصف دقيقة. فالمشكلة الاقتصادية: بطالة غلاء... الخ لكي يتم علاجها فيجب أن يزيد الإنتاج ويجب ترشيد الإنفاق ويجب نمو الصادرات.... الخ.

ولكي نمنع إسرائيل من غيها فيجب أن يتحد الصف، ويجب أن نأخذ بعلوم العصر، ويجب أن تمتنع أمريكا عن دعمها... الخ، وقس على ذلك أي قضية أو مشكلة.

إن الحل ليس بكثرة البنود اليجبية، إنما بالقدرة على تحويل ما يجب إلى واقع لكل أفراد هذه اليجبيات وهذا هو أحد الأسباب التي تجعل الكثيرين من المسلمين لا يثقون في كفاية الإسلام كدستور وكحل، فهم لا يرونه إلا من منظور الخطابة اليجبية التي ينتهي فيها دور الداعية المسلم بأن يناشد آحاد الأمة ليوضح لهم ما يجب وما لا يجب دون أن يتجاوز ذلك ليبين لهم آليات وبرامج عملية (ولو على المستوى النظري كيف يفعلونها وكيف يواجهون ما يعارض

وجهتهم من حولهم، بل وفي دخيلة أنفسهم، وكيف يتحولون من فرد هائم إلى مجموع هادر).

وحتى لا ندفع لتطرف مضاد فلنوضح: إن بيان الصواب والخطأ، ما يجب وما لا يجب هو الأساس لأي انطلاق صحيح لكنه يظل مشلولا لا قيمة له عمليًا حتى يستكمل ببرامج واقعية، وهذه البرامج تظل كسيحة حتى تضخ فيها موارد بشرية ومادية وعلمية تمثل طاقة الدفع، فلا وصول إلا بقوة دفع، قوة تدفعك نحو محطة الوصول، وتدفع عنك قوى المقاومة التي تصدك سواء كانت داخلية أو خارجية، إنها بديهية فكيف نغفل عنها.

وهكذا نكون من خلال الواقع قد توصلنا لموافقة ما جاء بالوحي ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾

[الحديد: ٢٥]

فلا تعارض البتة بين النص الثابت والتجريب الدقيق والعقل الصحيح والفطرة النقية إلا في المناهج الأرضية والديانات المحرفة. ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ**

النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]

الفارق بين السياسة والسياسة الشرعية

نعود للكتاب ومن تحته الحديد أو بعبارة أخرى إرادة من في السماء التي من اجلها تكون القوة و البأس الشديد، لندرك الفارق بينها وتلك الممارسات التي يقوم بها البشر لفرض باطلهم الذي يروجون له بأسماء جميلة براقة وهي في حقيقتها نقيض القسط والخير.

الكل يستخدم ما يملك من قوة لخلق واقع يراد، ولكن الفارق بينهما هو الفارق بين السماء والأرض.

ويطلق الآن على هذه النوعية من الممارسات في مجال الاستثمار الأمثل للقوة الذاتية في معالجة القوى الداخلية والخارجية بغرض فرض الإرادة على الآخرين أو مقاومتها بقدر الإمكان اسم (السياسية).

وهذا هوتعريفنا المختصر المختار إنها [فن معالجة القوى لحسم صراع الإرادات]، القوة بكافة صورها هي مفهوم الأساس، أما الكفاءة والحكمة في معالجة القوى بالقوة

الذاتية وتحديد ما يمكن فرضه من إرادات أو مقاومته هذا هو فنها الراق.

وإذا كانت هذ الإرادة موافقة للوحي، وطريقة استثمار القوة في معالجة القوى منضبطة بالشرع حينئذ يصبح اسم هذه الممارسة [السياسة الشرعية]. إنها السياسة التي تستخدم الحديد لإقامة الميزان لا لتمكين الأهواء، وهذه سنة الأنبياء ﴿ **يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ** ﴾ [سورة ص: ٢٦]، ثم من يقوم مقامهم كما يوضح لنا الرسول ﷺ: « **كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنْبِيَاءُ كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ وَإِنَّهُ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي وَسَيَكُونُ خُلَفَاءُ**...... » [رواية البخاري].

فإن كنت ممن يستنكرون ربط السياسة بالشرع فأنت أحد رجلين: إما علماني فالمناقشة معك تكون من نقطة الصفر إنها العقيدة.

وإن كنت ممن ينتسب للفقه فدع عنك الصورة الوضيعة لمن يمارس السياسة، فتلك صورة نتبراء منها مثلك تماما، إنما ندعوك لتوازن بين نظرك في كتب الفروعيات

والحواشي والملخصات من جانب ودراستك للقرآن والسنة وسيرة الرسول ﷺ وسياسته الشرعية ثم سيرة صاحباه من بعده ومن صار على هديهم، حينئذ ستجد هذه الحقيقة في سطوع الشمس وستأتينا - إن كنت فقيه حقًا - بالكنوز تلو الكنوز فنتعلم منك كيف نعبد ربنا بطول الحياة وعرضها ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٣] وكيف نُعبد غيرنا.

نعود إلى صلاح الدين الذي يواصل جهود سابقيه لبعث الأمة من جديد لتكون أقرب لصحيح دينها وليوحدها على التوحيد (كما كان يظن).

باب: صلاح الدين والسياسة الشرعية

الكيمياء السياسية

هذا المشروع الضخم كما أسلفنا لم يكن ليتم في فراغ من القوى بل كان لزامًا عليه أن يعالج كل منها على حدة بما يناسبه ويناسب المرحلة، وفي الحقيقة لقد أجاد وجدد صلاح الدين ثم أجاد وجد في فن التعامل مع هذه المفردات بحسب ارتقائه سلم المراحل، ووفق إحداثيات تلك القوى

من حيث منحنى (النوعية، الكمية، المكانية، الزمانية) لا من رؤية جامدة إنما من خلال قواعد ثابتة ترصد أي طارئ على ميزان القوى (المادي والنوعي) بحسب ما أحدث بيده أو ما أُحدث بغيرها.

هكذا يمكن أن تفهم معالجاته المتعددة للقوى المختلفة – بل مع القوة الواحدة – (فالعداء / الهدنة / التحالف / الإغفال / التصدي / الضغط / التنازل / الاستيعاب / الدمج / الاستعمال / ....الخ) تكتيكات استخدمت بمهارة وفق إستراتيجية جامعة، والأهم من ذلك أنه في كل حال يلتزم بالقيم السامية وقواعد الشرع الحنيف.

تأمل الموقف من آل زنكي، من الخليفة الفاطمي، بل من حركة الحشاشين التي حاولت اغتياله مرتين أو ثلاث وكيف استطاع أن يوظفها في نهاية الأمر لخدمة الإسلام) يأتي ابن الأثير على واقعة تعاون السلطان صلاح الدين مع الإسماعيلية في سنة ٥٨٨ هجرية وقتل المركيس – صاحب صور–، وهو أكبر شياطين الفرنج.. وكان سبب قتله أن صلاح الدين راسل مقدم الإسماعيلية بالشام، وهو سنان، وبذل له أن يرسل من يقتل ملك إنكلترا، وإذا قتل المركيس فله عشرة آلاف دينار.. فأرسل رجلين في زي الرهبان،

واتصلا بصاحب صيدا وابن بارزان، صاحب الرملة، وكانا مع المركيس بصور، فأقاما معهما ستة أشهر يظهران العبادة، فأنس بهما المركيس، ووثق بهما.. فوثب عليه الباطنيان المذكوران.. وقُتل الباطنيان بعده). [وليد مرجع سابق]

متي الحرب متي الهدنة مع الصليبيين؟، متى الإحجام متي الإقدام؟ تأمل معضلة حلب ذات الوضع الإستراتيجي الهام والسياسي المعقد وكيف يبرر ويمهد لأخذها؟ كيف ومتي يخاطب الخليفة في ذلك؟ وكيف يتحصل عليها؟

ستجد كل ذ لك يتم وفق استراتيجية ثابتة:

كليات أساسية تحكم السياسة

أ- على المنظور الداخلي (أهل السنة): جمع القوى بالطرق السلمية الحكيمة (ما أمكن) وإلا فالصراع المدروس عند الضرورة بعد استنفاذ كل طرق الضغط (المنهجي - المادي) والمقايضة. فالجمع وإعادة التوظيف للآخر مقدم دائماً على محاولات الإقصاء ،وهنا تستنفد وسائل مثل: الصبر، الدفع بالتي هي أحسن، الإصرار علي توضيح الغاية الصادقة لمواقفه. (قال ابن أبي طيّ: لما اتصل بمن في حلب حصول دمشق للملك الناصر وميل الناس إليه، وانعكافهم

عليه، خافوا وأشفقوا وأجمعوا على مراسلته فحمّلوا قطب الدين ينال بن حسان رسالة أرعدوا فيها وأبرقوا، وقالوا له: هذه السيوف التي مَلّكتك مصر بأيدينا، والرماح التي حويت بها قصور المصريين على أكتافنا، والرجال التي ردت عنك تلك العساكر هي تردك، وعما تصدّيت له تصدّك، وأنت فقد تعدّيت طورك، وتجاوزت حدّك، وأنت أحد غلمان نور الدين وممن يجب عليه حفظه في ولده) [(٢٩٩) الروضتين]، (ولما بلغ السلطان ورود ابن حسان عليه رسولاً تلقاه بموكبه وبنفسه، وبالغ في إكرامه والإحسان إليه، ثم أحضره بعد ثالثة لسماع الرسالة منه فلما فاه ابن حسان بتلك التمويهات العاطلة لم يعره السلطان - رحمه الله - طرْفاً ولا سمعاً، ولا ردّ عليه بل ضرب عنه صفحاً، وترك جوابه إحساناً وتجافياً، وخاطبه بكلام لطيف رقيق، وقال له: يا هذا، اعلم أنني وصلت إلى الشام لجمع كلمة الإسلام، وسدّ الثغور، وتربية ولد نور الدين، وكف عادية المعتدين.

فقال له ابن حسان: إنك إنما وردت لأخذ الملك لنفسك، ونحن لا نطاوعك على ذلك، فلم يلتفت السلطان لمقاله، وتزايد في احتماله، و أومأ إلى رجاله

بإقامته من بين يديه) [(٣٠٠) الروضتين] وسيأتي المزيد من هذا الباب في حينه.

ب- أما على المنظور الخارجي (أعداء الإسلام) فالاختيار أن يكون هو المحدد لشكل ووقت وكيفية الصراع مع استخدام المصالح للتفريق بينهم و بل واستعمالهم (وكان قد استأمن من الفرَنج خلق عظيم أخرجهم الجوع إلينا وقالوا للسلطان : نحن نخوض البحر في براكس ونكسب من العدوّ ويكون الكسب بيننا وبين المسلمين فأذن لهم في ذلك وأعطاهم بركوساً - وهو المركب الصغير - فركبوا فيه وظفروا بمراكبَ لتجار العدوّ بضائعهم معظمها فضة مصوغة وغير مصوغة، فأسروهم وكبسوهم وأحضروهم بين يدي السلطان فأعطاهم السلطان جميع ما غنموه.

قال العماد : فلما أكرموا بهذه المكرمة أثنوا على اليد المنعمة، وأسلم منهم شطرهم، وأحضروا مائدة فضة عظيمة وعليها مكبة عالية، ومعها طبق يماثلها في الوزن ولو وزنت تلك الفضيات لقاربت قنطاراً، فما أعارها السلطان طرفه احتقاراً) . [(٤٧١) الروضتين] .

وهو يقتنص الفرص السانحة بصراعهم أو بتضارب

مصالحهم، يقول الأستاذ وليد نويهض في دراسته القيمة (صلاح الدين الأيوبي سقوط القدس وتحريرها) : (كذلك لاحظ التعارض بين مصالح تجار المدن البحرية في المتوسط (جنوى والبندقية مثلاً) ومطامح ملوك وأمراء أوروبا وأطماعهم السياسية (الأيديولوجية) في صراعهم ضد المسلمين. فعقد مع تجار المدن الأوروبية اتفاقات لوقف تمويلهم حروب أمراء الممالك.

ولاحظ أيضاً أن أخلاق الفرنج الذين رافقوا الحملات الأولى واستقروا في المنطقة مدة حوالي القرن وتعلموا العربية وتعرفوا على عادات وتقاليد المنطقة وتسامح الدين الإسلامي معهم تختلف عن أخلاق الفرنج الجدد الذين كانوا يأتون إلي المنطقة ويحملون معهم الأحقاد والكراهية ويدفعون باتجاه القتال والانتقام والقتل فلعب على تناقضاتهم لتفكيك تماسكهم الداخلي.

كما لاحظ الصراع الخفي بين بيزنطيا (القسطنطينية) وممالك الإفرنج اللاتين فلعب أيضاً على تعارضات دولة الروم ودول اللاتين.

ولاحظ أيضاً الاختلاف الواضح بين المسيحيين العرب

والجاليات المسيحية اللاتينية التي كانت تختلف في مظاهرها وعاداتها وتقاليدها ولغاتها وسلوكها عن المسيحيين العرب فاستفاد من التناقضات ووظفها لمزيد من إضعاف جبهات الممالك الإفرنجية. حتى أن صلاح الدين لم يوفر الحشاشين، وهو تنظيم باطني حاول اغتياله ثلاث مرات وفشل، في استغلال قدراتهم الانتحارية (عمليات اغتيال مكشوفة) واستخدامهم عندما علم أن هناك خلافات بينهم وبين الصليبيين فاتفق معهم على تنفيذ اغتيالات ضد بعض زعماء الفرنج الذين كانوا يشقون بالحشاشين، وتعاونوا معهم، ونجح في تجنيدهم......

تلقى هذه اللوحة السياسية الكثير من الأضواء على الصعوبات التي واجهت استراتيجية صلاح الدين الحربية وهي استراتيجية لم تقتصر على المعارك العسكرية فقط بل شملت كل أنواع التكتيكات السياسية المتقلبة بهدف توسيع شبكة تحالفات الداخل الإسلامي لمواجهة الخارج الإفرنجي، وهي استراتيجية كانت ناجحة عموماً وأدت إلى نتائج باهرة في ميادين المعارك وأيضاً في حقول التفاوض وتحييد هذا الفريق وضربه بالآخر ثم مهادنة هذا الفريق

للتفرغ إلى قتال ذاك .

عمد صلاح الدين إلى توسيع خلافات الخصم وتحصين الجبهة الداخلية **(على عكس ما يحصل في أيامنا) فاستغل كل الثغرات في حروبه ضد الفرنج)** . [وليد (١١٢)(١١٣)]

واستغل على الفور صراع ريموند الثالث الذي أقصاه مقدم الداوية جيرالد وساعد غوي بدلا منه ليصير مللك بيت المقدس، استثمر صلاح الدين هذا الخلاف ليدق أسفين في الصف الصليبي و ليستكشف طوبغرفيا الأرض تمهيدا لقاصمة حطين .

ومثلما استطاع صلاح الدين أن يتعامل بحنكة مع مفردات قوى واقعة .

فقد أحسن على وفق السياسة الشرعية :

١- أن يحل معضلة الشرعية السياسية .

٢- أن يصنع عقاراً لعلاج التشرذم فيجمع شتات الأمة على منهاج مربوط بالسماء وبرنامج يفلح على الأرض به ترشد الغايات وتجمع الطاقات .

فكيف فعلها أبالخطب أم الشعارات ؟!



شعارات أم خطب حماسية

هذه الوصافات البراقة والخطط المحبوكة ما كانت لتعبر الواقع إلا بأسباب تعمل بعد التوفيق من العزيز القادر.

و ما كان ذلك ليخطط وينظم إلا من عقليه مدركة تماماً لخريطة القوى ولا يكفي ذلك الفهم فالاقتصار على الفهم لا يسفر إلا عن حسن تخطيط وصدق توقع أما التعامل مع القوى فلابد له من:

(أ) قوة ذاتية.

(ب) أدوات للتعامل مع القوى المحيطة.

(ج) منظومة متكاملة وبرامج محددة.

آلات جبارة

بالرافعة تحرك صخرة أثقل كثيراً من قوتك، وإذا نزعت الحكمة من رأسك فقد تجرب قوتها بأن تنطح بها الصخرة.

هنا عبقرية صلاح الدين فقد استعان بأدوات عملاقة من أجل مشروع عملاق ألا وهو توحيد الأمة نحو الغاية.

ولكي ينجح في مبتغاه فقد عمد إلى وضع طريق عمل ترشد إليه خريطة المصالح بعد إعادة (ترسيمها) للوصول إلى أسلوب جديد للاقتسام والتوزيع والدمج.

إنه يوظف كل ذلك من أجل حشد قوى الأمة (بالقدر الكاف) لمجابهة تحدي الواقع.

ويمكن صياغة إنجاز صلاح الدين بصورة أخرى : أن جوهر إنجازه هو في قدرته على جمع ودمج وتوحيد قوى الأمة، وفي تتويج جهود سابقيه بجهده هو، ويظهر ذلك المعنى من تلك الإشارة الرمزية : منبر آل زنكي يوضع في الأقصى بأمر صلاح الدين بعد عشرين عاما من موت نور الدين، وتأمل قدرته علي استيعاب كوادر الأمة وجندها من خلال الولاء لرسالة سامية بدلا من بذل الجهد في إقصائها لصالح عصبة محدودة (وكان القاضي كمال الدين الشهرزوري من كبار العلماء والوزراء في عهد نور الدين ولم تولى صلاح الدين أقره على ما كان عليه من تعيين القضاة، رغم أن كمال الدين ظن أن السلطان سيعزله لم كان بينهما من مخاصمة في عهد نور الدين) . [العبدة (سبق)] .

وفي قدرته الفائقة على تصحيح طريقة تفاعل قوى الأمة من السلبية إلى الإيجابية، أو ليحول حاصل الطرح إلى حاصل جمع بل حاصل ضرب بالمفهوم الرياضي . في الانتقال بها من حالة التناحر إلى وضع التكاتف، بأن تضبط

بوصلتها لتكون أقرب إلى قبلتها ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٦]. لقد وفقت الأمة لهادي خرّيت لتجاوز فيافي التشرذم ومفاوز التنازع.

مرة أخرى نذكر توحيد الأمة – بعد تمزقها – نحو غاية هو محور إنجاز صلاح الدين، فكيف فعلها؟.

مركز الانطلاق

إن مفتاح فهم هذا الإنجاز ونقطة الانطلاق الأساسية تتجلى في الحقيقة التي لا يمكن تجوزها، أن التحدي بالأساس داخلي لا خارجي، أنه تابع من ذات الأمة لا من قدرات عدوها، وأن السبيل الوحيد هو ضبط منطلقاتها وإعادة ترتيب أوراقها بعد فرزها.

هذا الإنجاز لم يتم بالطبع من خلال حمل لواء (اليجبية) المجردة، من خلال نداءات تبدأ بكلمة يجب ثم يجب ثم يجب، أو بالاقتصار على المثالية الفلسفية العقيمة مع نوم حالم بالأماني المعسولة (إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن) سبق، إنما يتم هذا من خلال التزاوج بين القوة المادية والقوة المعنوية (القيم) على وفق الشريعة الهادية.

وهكذا دائما لابد أن يجتمع الكتاب ومن تحته الحديد ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ [الحديد: ٢٥].

من خلال خطوات عملية متكاملة متراصة متدرجة ينظمها جميعا منهج كلي له سمات واضحة مقبولة من الكافة. مع تصور إمكانية الفلاح (من هؤلاء الذين يجمعون بين حداثة الإتباع واستمرارية اختبار قادتهم) التي تتأكد مع كل نجاح جزئي.

مع تمثل صادق حقيقي لهذا المنهج، تمثل لا مزايدة رياء من ذلك النوع الذي تسقط أقنعته مع أول اختبار بحيث يتيقن الكافة - العدو قبل الصديق - أن القائم على الأمر صاحب رسالة قبل كونه صاحب ولاية، صاحب رسالة لا مجرد طالب ملك. لقد اجتمع كل ذلك فأثمر إنجازاً فهل تماري فيما سطر التاريخ؟. ولنُنَظِر ثم نفصل.

باب: حقيقة القيادة

خريطة العمل

أن تتبع خريطة ليس شرطاً لأن تسير وإنما ذلك شرط لأن تصل.

الأرض والسماء والعلامات كانت هي محدد مسارات البشر، فعلى الأرض تضاريس تجبر، وعلامات ترشد، ونجوم السماء تهدي، الجبل مانع إلا أن تجد شعبًا، والحزن معيق إلا أن تجد سهلاً، ومن ضل الاتجاه وجد هداه إن رفع رأسه إلى نجوم السماء، ومن ظنه الناس صادقًا خريتا وثقوا في علاماته. تبدلت الأوضاع، تقدم الإنسان وظلت هذه الثلاثية، الأرض وتضاريسها، السماء وهديها، العلامات ودلالاتها.

الطرق والكباري والأنفاق بديلاً عن السهول، الأقمار الصناعية بديلاً عن النجوم، العلامات الحجرية والخشبية صارت مضيئة بل إلكترونية.

فمن يترك الممهد للوعر، ويعاند علامة يثق بها، ويخالف هدي السماء، إنها الثلاثية التي ترسم مسارات البشر والتي إن فقدت تشتت الناس في كل حدب وصوب.

الفشل و الشتات هكذا يكون حال البشر إن تركوا لأنفسهم وحينئذ يستحيل أن يتناغموا في عمل جماعي نحو غاية (رشيدة أو حمقاء، نافعة أو ضارة) لذا كان بديهيا عند العقلاء حتمية وجود قيادة حاكمة، ثم اشتجروا

في الأسلوب والشكل الذي يجب أن تكون عليه عملية القيادة والحكم، ثم افتخروا وتنابزوا بالألقاب، فالديكتاتورية يغلفها البعض بثوب الانضباط والحزم وينادي من حرم من الغنائم: إنها استبداد، والأرستقراطية تولت عندما وجدت الجماهير أن تلك الدماء الزرقاء لا قيمة لها ولا تمييز، والحكم بالقرآن والسنة يشوهه من يعاندهما باسم الثيوقراطية، وصار الناس فريقين في الديموقراطية. ويرى البعض من ذوي الأسماء الإسلامية أنه لا فارق بين الشورى والديمقراطية إلا في سبق الوثنيين اليونان للنبي العدنان... الخ.

مثل هذا الخلاف الناتج عن محاولة كل الأطراف لترويج غايتهم العليا (سواء كانت المصالح الذاتية أو الهوى المحض في مقابل الرسالة السامية) يجب ألا يشتتنا ونحن نبحث في الآلية التي يمكن بها توحيد جهد أمة نحو غاية، فالبشر كما أسلفنا جبلوا لأن يكون سعيهم شتى، وهذا يجعل مهب الريح هو المستقر لأي تصور للعمل الجماعي المشروط لبعث الأمم.

نعم إن كنت تملك القوة فقد تستطيع إكراه الناس على

قطع من الطريق، وإن كنت تملك الفكرة فقد تستطيع إقناعهم لفترة من الزمن، لكن هناك استحالة تامة في كل أن تكمل كل الطريق على مر اختلاف الأزمان.

إن الفشل ولا شيء غير الفشل هو النهاية المحتومة لأي كيان يعتمد الإجبار المحض أو الإقناع المبهر سبيلاً وحيداً للقيادة. فما هو السبيل لتوحيد شتات الجهود نحو الغاية؟

جوهر عملية القيادة

قد يجيب البعض عن السؤال السابق باقتراح صورة من صور الحكم كالديموقراطية أو الإسلام أو غير ذلك من المناهج والطرق، لكن قارئنا اللبيب يدرك أن السؤال يتوجه لشيء غير ذلك، إنه يبحث عن جوهر الآليات الأساسية لعملية القيادة وليس عن أنماطها المتعارضة.

نعود مرة أخرى إلى سؤالنا البالغ الأهمية ونجيب عليه بتوظيف تلك الثلاثية (الأرض، السماء، العلامات) من خلال سؤال آخر ومثال.

فنسأل: ما الذي يلزم قائدي السيارات بالقيادة المنضبطة؟ إنها المصلحة في اجتناب المطبات والوقاية من الاصطدام بالحواجز وعلامات الطريق وإشارات المرور مع تمثل

الواعظ القيمي الذاتي بأن هذه القواعد المنظمة تمثل الصواب.

وإن ضعف هذا الواعز جبر بالخوف على المصلحة المالية (الغرامة) والجسدية (الحبس) والمعنوية (كونك متهم أو مذنب).

هكذا تظهر ببساطة ثلاثية تنظيم الجهود في مقابل ثلاثية تحديد الدروب، إنها [المصالح الأرضية والقيم العليا والإشارات [المماثلة] للأرض والسماء والعلامات]. ﴿ **وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ** ﴾ [النحل: ١٥-١٦]

وهكذا بالضبط يمكن أن تتلاشى الخيارات الفردية المتضاربة المشتتة ويحل بديلا عنها الانضباط الجماعي اللازم لإنجاز طموحات الأمم.

هذا لو استطعت أن ترسم للعمل خريطة تضاريسها الأرضيةَ المصالح ونجوم سمائها القيم والعقائد وعلاماتها إعلام يوثق به يعنون المصالح والقيم لمن يعشو عن رؤيتها فتظهر عاقبة الموافقة والمخالفة للتضاريس والنجوم.

إنها ثلاث خرائط أو قل خريطة لها أجزاء ثلاث إن التئمت وضح بها درب العمل، وبوجود الخرائط الثلاث



[خريطة المصالح، خريطة القيم، خريطة الإعلام] يستحيل الشتات التزام، والتسيب انضباط.

وبقدر إتقانها يكون الحماس الطوعي الذاتي لذلك السبيل المرسوم سلفًا، ويكون الإكراه السافر استثناء، فهناك ما يغني عنه.

والقبول الشعبي لبعض النظم مثل النظام الأمريكي أو الياباني مثلاً لا يعود في حقيقته إلى شعارات الديموقراطية أو حرية الاختيار المتوهمة للأفراد وإنما يرجع لأن السادة المنتفعين يجيدون العزف على الأوتار الثلاثية، ولهذا براهين لا محل لها هنا، وهكذا بدأت الخطة الأمريكية تحت نشوة الانتصار السهل بتفكيك كل مؤسسات الدولة البعثية وكانت تؤجل إجراء الانتخابات في العراق بالرغم من زعمهم نشر الديموقراطية، ببساطة كانت تتوهم أن تعيد رسم الثلاثية على المصالح الإمبريالية – تماما مثلما كانت بريطانيا تستخدم اللعبة الديموقراطية في مستعمراتها الغابرة – ولكن تحت ضغط المقاومة السنية والمراوغة الشيعية وجدوا أنفسهم في مستنقع فعمدوا لاستبدال ذلك الوهم الجميل بمحاولة ترتيب معاهدات تضمن لهم تحقيق أهداف

الغزو في حدها الأدنى من خلال حكومة تشكل تحت غطاء انتخابات، فهل ينجحون في ذلك . . .إن الغد لناظره لقريب. استطرادي هذا ليس لتحليل الواقع العراقي فليس هذا محله، وإنما لبيان أن هذه الثلاثية هي أدوات يتعلق بها الماضي والحاضر والمستقبل السياسي وليست تحف أثرية. لكن لنشرع الآن في الإشارة لهذه الثلاثية في وصفة صلاح الدين.

خريطة المصالح

تحديد ماهية نظام ما، معرفة أهدافه، توقع أفعاله، أمر عسير لمن اقتصر على المعلن من الأقوال، والمرفوع من الشعارات؛ أما من رسمت في ذهنه خريطة المصالح لذلك النظام (الكيان) فهو يرى ذلك الكيان على حقيقته العارية، ومن أراد ذلك عليه أن يجيب على أسئلة منها: لمن الاستحقاق؟ ما ميزان التوزيع ومقياس التفاضل؟ ...... أو باختصار لصالح من هذا الكيان؟

وبقدر اتساع الخريطة يمكن استيعاب مكافئ من الأفراد، وكذا الكيانات، المنظومة في دائرة ذلك النظام.

هنا مكمن التحدي في أن تعيد صياغة يمكن بها:

١ – التوفيق بين المصالح (فالناس في مجال المصالح جبلوا على التنافس لوجهات متقابلة ولطبقات عديدة) .

٢ – إعادة ترتيب الأولويات لتشمل المصالح العامة الكلية للأمة والمصالح الخاصة لأفرادها مثل (الطبقة الحاكمة، القادة، الجند، عموم الناس، الفقراء، الأعيان، الخليفة العباسي، باقي الأمراء وأتباعهم وأذنابهم، أهل العلم والشيوخ . . .الخ) .

٣ – وأن تبقى بعد ذلك بقية لمن استهدف انضمامه إلى ذلك (النظام) (الكيان) ليشارك في الولاء ويعمل نحو الغاية .

من أراد أن ينال قناعة كل هؤلاء فعلية أن يجد ما يريدون و أن يبرز مقياسا للعطاء يراه الكافة عدلاً، وأن يكون في نفسه قدوة، حتى يمكن لغيره أن يقهر دوافع الحقد والحسد والغل في نفسه .

إذن لابد من خريطة جديدة واقعية للمصالح ترشد ولا تستأصل الأطماع البشرية، تعتبرها طالما لا تعارض مصالح الأمة ولا تفرق الصف ولا تتعدى على حق الغير.

لقد كان الخوف على المصالح أحد أهم الأسباب المعيقة لتوجه الجهود نحو العدو: (وفي عام (٥٠٥) تحمس

السلطان السلجوقي لمساعدة المسلمين في بلاد الشام فجهز جيشا كثيفا برئاسة الأمير مودود ومعه الأمراء: صاحب تبريز (سكمان القطبي) وصاحب مراغة (أحمديل) والأمير ايلغازي صاحب ماردين، واستطاع هذا الجيش انتزاع بعض الحصون من الفرنجة ولكن أكثر الأمراء رجعوا إلى مدنهم خوفا من حدوث أي انقلاب عليهم، ثم إن البطانيين قتلوا الأمير مودود في الجامع الأموي في دمشق). [(٣٣) العبدة].

ولكي تكون المصلحة على هذا النسق ولكي تكفي الكافة لابد أن نجد كنز لا ينفذ، وأن يعاد صياغة نظرة الأفراد إلى مفهوم المصلحة بحيث ينظر للمصلحة العامة للأمة على أنها جزء من المطلب الخاص للفرد (طوعاً أو دفعاً)، وهذا هو المدخل للخريطة الثانية من حيث التناول الأولى من حيث الأهمية.

خريطة القيم

إن قيم الفرد سواء كانت سامية أو وضيعة هي مقياس الصواب والخطأ لديه، وهي التي تشكل العدستان اللتان ينظر بهما للمصالح المتقابلة (الدنيوية / الدينية) (الفردية

/ العامة)، فلأي المصلحتين تجعل المحدبة ومن ثم لضرتها تجعل المقعرة، وبأي قدر، ذاك هو المحدد لسلوك الفرد ومن ثم الجماعة .

ومصدر كل ذلك هو القيم الذاتية للفرد، قارن بين سلوك أمراء الأندلس الذين أدى تنافسهم إلى سقوط راية الإسلام على أرضهم ومنهم الملك المعتمد العباد، مع سلوك نفس ذات الملك عندما يعلن قيم جديدة عندما أنكرت عليه بطانته الاستعانة بيوسف بن تشافين وخوفوه على دنياه : لو جاء ابن تشافين لجعلك سائسا لإبله، فقال لهم قولته المشهورة : لأن أرعى الإبل خيراً لي من أرعى الخنازير.

صلاح الدين إذن ما كان ليغفل تلك الحقائق، ولما كان مسلما كان كنزه هو الإسلام، فسار على محورين :

الأول : المحور العام كما أسلفنا رفع الإيمان، الاهتمام بالأصول وبالعلماء (ومن أجل أن يصل إلي غايته كان عليه أن يقوي أعماله والقدوة التي يخلقها بإيجاد تيار خلقي ونفسي يسند موقفه ويكون قوياً بحيث تتعذر مقاومته. فكان لذلك في حاجة إلى حلفاء وبخاصة طبقة (فقهاء المدارس) قادة الرأي العام يومئذ ، وذلك من أعسر الأمور

لأن هؤلاء الفقهاء كانوا كما ذكرنا آنفاً، يمثلون – على وجه التحديد – الفئات التي اتخذها نور الدين لتأييده. وبما أن صلاح الدين بدا أول الأمر مغتصباً تحدّى ورثاء نور الدين، فإن هؤلاء الورثاء وشعب سورية بوْجه عام اتخذوا في البداية جانب المعارضة له، أو على الأقل، جانب الحذر منه. ولا نجد في المصادر العربية إلا إشارة ضئيلة إلى ما طرأ على موقفهم من تغير تدريجي، لكن هناك شواهد كثيرة في التواريخ وفي روايات المعاصرين تدل على أنه استطاع بصدقه و إخلاصه أن يكسب آخر الأمر احترامهم له وإعجابهم به). [دراسات (١٣٥)]

الثاني: بتقرير قيم محورية (بصورة عملية)، على رأسها جاءت قيم تعظيم أحكام الشريعة و الولاء والبراء والجهاد والوحدة.

فهو يصبغ الإطارات الحاكمة للصواب والخطأ صياغة سياسية شرعية يتوجه بها للآخرين ويشنع على ويفضح المخالف. فيروي لنا صاحب الروضتين ما حدث بعد أن (خرج جيش الموصل بقيادة سيف الدين يريد استئصاله فراسلهم واجتهد أن يصالحهم فغرتهم كثرتهم فلما هزموا وأسر بعضهم صلاح الدين « ووجد السلطان عسكر الموصل

كالحانة من كثرة الخمور والعيدان والمغنيين والمغنيات، قال: واشتهر أنه مع سيف الدين أكثر من مائة مغنية، وأن السلطان أرى ذلك لمعسكره واستعاذ من هذه البلية. [(٣٠٦) الروضتين] «بعد آن أمر أصحابه برفع السيف وترك التعرض لمن وجد منهم بقتل أو نهب» ثم من على كل الأسري وأطلقهم.

باب: الولاء والبراء

الولاء والبراء أساس للوحدة والنصر

التطبيق العملي لمفهوم الولاء والبراء هو أحد مرتكزات النصر الأساسية، سواء من وجهة النظر العقدية الغيبية التي يستجلب فها من كان مؤمن عون الله أو من وجهة النظر الموضوعية الأرضية، وهو مؤشر صادق لتقييم حال الأمة وفرصها لنيل الانتصار أو السقوط في هوة الاندحار، وما كان صلاح الدين ليغفل ذلك لذا فهو يؤكد بالقول والأمر والعمل والتهديد، ويتضح منهجه كل الاتضاح «في رسالته إلى قلج ارسلان سلطان الأناضول عام ١١٧٨م التي يقول فيها: أنه لن يسمح بتداول الحروب بين أمراء المسلمين بدلاً من اتحادهم معاً في الجهاد.[دراسات (١٣٤)]

ويأمر أخاه في صيغة تجمع بين اللطف والحزم والترغيب فيرسل إليه: (والآن فالمجلس السامي يعلم أن الفرنج لا يسلون عما فتحنا، ولا يصبرون على ما جرحنا، وأنهم - لعنهم الله - أمما لا تحصى، وجيوشاً لا تستقصى، ويد الله فوق أيديهم، وسيجعل الله بعد عسراً يسراً .. وإن لم يقذفوا من كل جانب استأسدوا واستكلبوا، **وكانوا لباطنهم الداحض أنصر منا لحقنا الناهض** .. فإنا لا نرتاب بأن الله - تعالى - ما فتح علينا هذه الفتوح ليغلقها، ولا جمع علينا هذه الأمة ليفرقها، وإنما يؤثر أن يتساهم آل أيوب في ميراثهم منه مواقف الصبر، ومطالع النصر، ولا يسرنا أن ينقضي عمره (أي سيف الإسلام) في قتال غير الكافر ونزال غير الكفر المناظر) [(٤٠٨) الروضتين] فهو لا يرضى من أخيه سيف الإسلام والي اليمن أي تقصير أو التفات لخصم مسلم يكون بدلا للعدو الكافر. ويحاول إجبار قبيلة جذام على تنفيذ مقاطعة اقتصادية مع الصليبيين.

ويشنع على من خرق هذا المبدأ دون اعتبار لأي مبررات، وها هو يرسل للخليفة العباسي بعد اتفاق منافسيه

مع عدوه: «المواصلة راسلوا الملاحدة الحشيشة واتخذوهم بطانة من دون المؤمنين، وواسطة بينهم وبين الفرنجة الكافرين، ووعدوهم بقلاع من يد الإسلام تقلع، وبدار دعوة بحلب يُنصب فيها علم الضلالة فيرفع، ويا للعجب من الخصم يهدم دولة حق وهي تبنيه، بل هذا رسولهم عند سنان صاحب الملاحدة، ورسولهم عند القمّصُ ملك الفرنج ومتى استمرت المشاركة في الشام أفضت إلى ضعف التوحيد وقوة الإشراك، وترامت إلى أخطار يعجز عنها خواطر الاستدراك، وإذا اجتمعت في الشام أيد ثلاث: **يد عادية ويد ملحدة ويد كافرة**، نهض الكفر بتثليثه، وقصرت عن الإسلام يد مغيثة، ولم ينفع الخادم حينئذ تصحيح حسابه وتصديق حديثه، وما يريد الخادم إلا من تكون عليه يد الله وهي الجماعة، ولا يؤثر إلا ما يتقرب به إليه وهو الطاعة، ولا يتوخى إلا ما يقوم به الحجة اليوم ويوم تقوم الساعة)». [(٣٤٨) الروضتين].

ويتضح منهجه كل الاتضاح في رسالة أخرى للخليفة (هذه المقاصد الثلاثة: الجهاد في سبيل الله والكف عن مظالم عباد الله، والطاعة للخليفة هي مراد الخادم من البلاد

البلاد إذا فتحها و الله العالم أنه لا يقاتل لعيش ألين من عيش ولا لغضب يملأ العيان).

في الحقيقة هذا المبدأ الولاء والبراء هو الضمانة التي تمنع العدو من أن يكون أحد عازفي إيقاع لعبة العروش الموسيقية خصوصاً إذا كانت غاية العروش هي توسيع الكروش.

وقد تلاشى حكم الفاطميين بتلاشي هذا المبدأ الذي يفرز ثنائية (عدو/صديق) بصورة عملية.

وهكذا وجد الصليبيون ونور الدين محمود مدخلا في اللعبة السياسية بمصر، وفي النهاية جاءت نهاية الدولة الفاطمية وحسم الأمر لصالح أهل السنة ولهذا تفصيل أعرضنا عنه للاختصار.

لذلك استماتت صلاح الدين - الذي شارك بالحظ الوافر في الصراع السالف الذكر - في سبيل ذلك المبدأ (الولاء والبراء) وتحقيقه بكل الوسائل المادية والمعنوية وبالترغيب والترهيب.

والأكثر من ذلك يستثمر الخلل الذي أصاب هذا الأصل عند الصليبيين ليضرب ضربته الكبرى في حطين.

ومن يدرك حقيقة الآثار المترتبة على (إعمال / إغفال)

هذا المبدأ يعني لماذا كل هذه الضغوط لتجديد الخطاب الديني وتطوير التعليم، فهكذا تخضع الأمم الأبية وتركع.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٥١ : ٥٧].

باب: الشرعي والبرجماتي

هل يستطيع أحد الاستغناء عن ميكافلي؟

ولما كان نهج صلاح الدين كما أسلفنا مستمد من إسلامه فإننا نجد من علاماته البارزة: القيم الأخلاقية السامية التي كانت تبدو وبمقياس ذلك العصر لا قيمة لها ولا اعتبار، أو بالأحرى هي لغة أجنبية لا يفهمها أحد، بل ولا يحاكيها أحد إلا على سبيل الرياء والسمعة، إنما القاعدة (راستي روستي) (كلمة تيمور لنك التي لا يقرها الإسلام وإن كانت هي شمس الشموس للقوى السياسية على مر العصور الحق هو القوة. أما: الصدق، الوفاء بالوعد، عدم الغدر، احترام العهد، العفو، الكرم، السماحة، الرحمة ...... الخ وغير ذلك في الحماقات والجرائم كما تبدوا من المنظار الميكافلي فقد تنزه عنها أهل ذلك العصر.

يقول جيب والفضل ما شهدت به الأعداء: [وكان مبدؤه الأول في سياسته نحو الأمراء، سواء أكانوا أصدقاء أو أعداء، هو صدقه فيما يقول وتمسكه المطلق به،حتى مع الصليبيين كانت الهدنة هدنة، وليس في سجله مثل على انه نقض اتفاقاً معهم، ولكنه لم يكن يغفر لمن ينقض عهده

وذلك ما كان على أر ناط والدويه أن يفهموه.

أما نحو منافسيه المسلمين فكان يقرن إخلاصه بكرمه، فبعد اتفاقه مع الملك الصالح سنة ١١٧٦ (وحادث استرجاع عزاز المشهور) ترك حلب إلى أن توفي الملك الصالح مع أن الخليفة كان قد أعطاه تقليدا بولايتها. وحاصر آمد لأنه كان قد وعد بها الأمير الأرتقي صاحب حصن كيفا جزاء على مخالفته له، و بعد أن استولى عليها ترك لحليفه كنوزها الهائلة على حالها - وذلك وفاء بوعد لم يسبق له مثيل أثار الدهشة والعجب] [(دراسات١٣٥)]

وتأمل العدو جيب يحدد الغاية ويوصف الشخصية - و الرائد لا يكذب أهله - فيقول: (كان غاية في البساطة فذاً في النزاهة. ولقد حيرّ أعداءه، من الادنين و الابعدين، لأنهم كانوا يتوقعون أن تكون حوافزه مثل حوافزهم، وأن يقوم بالألاعيب والمداورات السياسية مثلما يفعلون). [دراسات (١٣٢)]. أما غايته فهي (أن يتابع المضي في تحقيق حلمه النبيل، وإن كان مثالياً، **في إعادة حكم الشريعة إلى العالم الإسلامي**). [دراسات (١٣٨)].

هذه القيم المعنوية لما امتزجت بالقوة المادية - اللازمة ليجاوز بها أي تخطيط مرحلة الأمل - صار الكيان ذو طاقة هائلة.

ولم يقتصر أثر التمثل لهذه القيم على مجال القوة والطاقة بل تجاوزها لمجال أساسي ولازم لانطلاق أي كيان ألا وهو المجال الإعلامي.

الإعلام والدبلوماسية

هذه القيم – المتجسدة وقائع و حقائق – صار لها صدى هائل، وهكذا انطلق إعصار إعلامي أساسه الصدق (صدق الرسالة).

لقد كان هذا المزج أحد أهم تجديدات صلاح الدين وما كان يمكن إعادة رسم خريطة المصالح إلا به. وبه دعمت الأداة الدبلوماسية التي برع صلاح الدين في استعمالها.

إن التفاف الرجال والقادة من حوله، المقاومة الضعيفة من منافسيه و معارضيه من داخل الصف، اطمئنان الحلفاء للعمل تحت قيادته، في عصر لا يأمن الحليف حليفه مهما كانت الظروف وقد اختار الأستاذ محمد العبدة حفظه الله هذه الحادثة لتجسد روح العصر ف (ملك دمشق معين الدين آنر استجار بملك الموصل سيف الدين غازي لمساعدته على الصليبيين، فقال له الملك غازي: أخشى من الغدر تسلم لي دمشق حتى أكون في مأمن، وأنا أحلف لك إن



كانت النصرة لنا لا آخذ دمشق ولا أقيم فيها، ولكن (آنر) لم يطمئن ولم يسمح له بدخول دمشق).

بل والأكثر من ذلك (و في عام ٤٠٣ تآمر منوجهر مع أصحابه على قتل والده قابوس بن وشمكير صاحب جرجان حتى يصفو الأمر للابن) [العبدة (١٥)].

وتشهد علي أهمية ذاك الأثر الإعلامي هذه الحصون الشامخة التي يخليها الصليبيون أعداؤه بناء على كلمة مجرد كلمة تخرج من فمه، إن ذلك في الواقع يقدم براهين واضحة لا تقبل الجدل.

والعاقبة للتقوى

هذا المحور الأساسي - الالتزام بالخلق الإسلامي والشرع - من منهج صلاح الدين (أيدلوجية) على الرغم من أنه سبب له العديد من المشاكل وتوجه إليه من جرائه سيل من الانتقادات سواء من جنده المقربين أو الحاشية الملتفين (وأقام السلطان على القدس حتى تسلم ما بقربها من حصون، واستباح كل ما للكفر بها من مصون، ثم عمد إلى ما جمعه ففرقه، وأخرجه في ذوي الاستحقاق وأنفقه، فأكثروا عذله، على بذله، واستكثروا ما أفاضه بفضله، فقال: كيف

أمنع الحق مستحقيه؟ وهذا الذي أنفقه هو الذي أتقيه، وإذا قبله مني المستحق فالمنة له علي فيه، فإنه يخلصني من الأمانة ......).

وهذا ابن الأثير يعزي عصمة صور على الفتح إلى تلك السياسة فهو لم يفتح الحصون عنوة ثم هو يحترم الأمان الذي أعطاه لجند القلاع كي يخلوها له فتجمعوا في صور فلم يستطع فتحها بعد.

وقد أنكر عليه قواده ترك كنوز آمد لحليفه (وتسلم السلطان مدينة آمد بأموالها وذخائرها، ونصبت أعلامه على أسوارها، وذلك في رابع عشر المحرم، ووجد فيها من الغلال والسلاح وآلات الحصار أشياء كثيرة لا يمكن أن يوجد في بلد مثلها، ووجد في برج من أبراجها مائة ألف شمعة وأشياء يطول شرحها، وكان فيها خزانة كتب كان فيها ألف ألف وأربعون ألف كتاب فوهب السلطان الكتب للقاضي الفاضل فانتخب منها حمْل سبعين حجازة، ويقال: إن ابن قرا أرسلان باع من ذخائر آمد وخزائنها مما لا حاجة له به مدَّة سبع سنين حتى امتلأت الأرض من ذخائرها، وكان السلطان لما تسلم آمد وهبها لنور الدين

محمد بن قرا أرسلان بما فيها، وكتب له بها وبأعمالها توقيعاً، ووفى له بما وعده به، وقيل للسلطان: إنك وعدته بآمد وما وعده بما فيها من الأموال والذخائر وفيها من الذخائر ما يساوى ثلاثة آلاف ألف دينار، فقال: لا أضن عليه بما فيها من الأموال، فإنه قد صار من أتباعنا وأصحابنا) . [الروضتين (٣٥٨)].

كان تلك الانتقادات هي الضريبة التي يجب أن تجبى من سجل كل مجدد ومصلح يرقى عن أهل زمانه.

لكن عدوه جيب ينصفه فيقول: (أما إلي أي حد أسهمت شهرة صلاح الدين بالسخاء والإخلاص المطلق لكلمته في استعادة فلسطين وسورية الداخلية خلال السنة و النصف اللتين أعقبتا واقعة حطين فذلك أمر مشهور إذ لو أن الضرورة دعت إلى الاستيلاء على كل قلعة وبلدة محصنة بواسطة حصار منتظم، لما كان أكثر من عشرها قد سقط قبل استهلال الحرب الصليبية الثالثة [أرسلت بعد تحرير القدس] ولكان بالتالي تاريخ تلك الحرب مختلفا كل الاختلاف لو أن الصليبيين قد حصلوا على الدعم من

حاميات عسكرية تعمل وراء جيش صلاح الدين).
[دراسات ١٣٨].

وبالأضداد تتجلي الحقائق، قارن بين نتائج هذه السياسة والسياسة المقابلة التي أنتهجها الصليبيون بمنتهى الغطرسة والغدر وهم يحاولون السيطرة على مصر.

درس بليغ

هنا يجدر بنا أن نلخص الدرس البليغ؛ فالدخول في (السلم كافة) كأساس لا بديل عنه للوصول للقدرة على القيام بفرض الوحدة والاعتصام بحبل الله – من الكافة – يحتاج لأسباب تدفع وتيسر على الكيانات الالتزام به – حسب الإمكان.

ومن أهم هذه الأسباب إعادة ترسيم خريطة المصالح بناء على تجديد الدين، فتمتزج القوة المادية متمثلة في جمهور وكوادر ومؤسسات وقيادة بالقوة المعنوية الهائلة ممثلة في الالتزام بالتكاليف الشرعية، بدءا من أعلاها ألا وهو إقامة التوحيد الشامل المتكامل، وحياة الولاء والبراء والإخلاص الصادق، مروراً بالوفاء والرحمة والصدق، وكذا التبسم في



وجه أخيك المسلم (لا الاقتصار على أخيك في الجماعة أو الكيان أو الحزب)، حتى إماطة الأذى عن الطريق.

أدلف هتلر/ نابليون بونابرت

هكذا تعد الوصفة الحقيقية لوحدة حقيقية للمسلمين.

والخلل في اعتبار ما سبق هو أحد أهم الأسباب المفسرة لسجل الفشل الدائم لبعض الكيانات الإسلامية الكبرى ذات الثقل المادي الكبير، سجل الفشل في مجال توحيد الصف واستيعاب القوى الإسلامية، سواء في الزمن الماضي أو المعاصر وأخشى أن أقول وكذا في الزمن المنظور القريب.

فالخطأ أن نعول على القوة المادية الذاتية لعصبته على وفق السنة الهتلرية، وألا نجعل توحيد الصف على التوحيد هو أول الأولويات الحركية على الإطلاق.

وألا نعطي مسألة ترشيد المصالح من خلال منظومة القيم الشرعية القدر الكاف من الاهتمام.

مع بقاء تلك النظرة العصبية الضيقة أرى بها أخواني، أرى عيوبهم فتشغلني تلك النظرة عن تصحيح عيبي، فلا أكون قادراً أو حتى راغباً في ترشيد قيمي الذاتية، ناهيك عن قيم غيرى، ومن ثم المناهج.

غيرى الذين هم في الحقيقة الغائبة مني وأنا منهم.

وللأسف الشديد هذه السياسة هي الرائجة الآن في الساحة، فإلى الله المشتكي.

باب: استكمال ما لابد منه

تمثل القدوة

وبقدر إخلاص صلاح الدين لرسالته صار قدوة في أفعاله يقول الأستاذ العبدة حفظه الله: (وقد ذكرنا كيف أنه كان ينقل الحجارة بنفسه لعمارة سور القدس «ولو رأيته وهو يحمل حجراً في حجره لعلمت أن له قلباً قد حمل جبلاً في فكره» وعندما رجع إلى دمشق وجد وكيل الخزانة قد بنى له دارا فغضب عليه وقال: إنا لم نخلق للمقام بدمشق ولا بغيرها وإنما خلقنا للجهاد). [(٩٢) عبدة]

(وكان متواضعاً جداً، يخرج للقاء من يقدم عليه، ويكارم الناس مكارمة عظيمة ولربما طلب الماء من خدمه فلم يستجاب له، ولا يقول لهم شيئاً. قال القاضي الفاضل: (وكانت طرحته تداس عند التزاحم عليه لعرض القصص (ما يطلبه الناس..). (وكان رحمه الله يركب



وينقل الحجارة بنفسه على دابته من الأمكنة البعيدة، فيقتدي به العسكر) [ابن الأثير - العبدة ٧١].

وقد أسلفنا قطع من سيرته كعبد مسلم.

حتى الإنجليزي جيب رتب علي ذلك آثار هامة تراها في صلب العناوين القادمة فهو يقول: (فلقد انتشل الإسلام طوال فترة حاسمة - رغم قصرها - من وهدة الانحطاط الأخلاقي السياسي، حين نادى بمثل أخلاقي أعلى، ولما أن طبق هذا المثل على حياته الخاصة وأعماله **خلق حوله حافزاً للاتحاد** كان كافياً - بالرغم من عدم اكتماله - لمواجهة تحد مغيب ألقاه القدر في طريقه). [دراسات ١٤٠]. (ويرى أن تلك الاستراتيجية الخلقية شكلت رافعة سياسية وذللت الكثير من ا لصعوبات في معاركه العسكرية). فهو يعتبر أن انتصاراته (جاءت بفضل امتلاكه لصفات معنوية (أدبية) لا تشترك مع المواهب (الحربية) إلا في القليل .. وبهذه الوسائل، وليس بفضل مقدرة استراتيجية حربية متفوقة، نجح صلاح الدين في حشد ذلك الجيش الذي قدر له أن يقضي على مملكة القدس اللاتينية ». [(١١٤) وليد]

ولكي ندرك لأي مدى صار قدوة محبوبة نرى وصفهم له حال حياته وموته «رأيت صلاح الدين على القدس، فرأيت ملكًا عظيمًا يملأ القلوب روعة والعيون محبة. قريبًا وبعيدًا، سهلاً ومحببًا، وأصحابه يتشبهون به ويتسابقون إلى المعروف كما قال تعالى: ﴿ نَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ [سورة الأعراف: ٤٣]، وأول ليلة حضرته وجدتُ مجلسًا حفلاً بأهل العلم يتذاكرون في أصناف العلوم، وهو يحسن الاستماع في المشاركة، ويأخذ في كيفية بناء الأسوار وحفر الخنادق ويتفقه في ذلك. وكان مهتمًا في بناء سور القدس وحفر خندقه ويتولى ذلك بنفسه، وينقل الحجارة على عاتقه، ويتأسى به جميع الأغنياء والفقراء، فيركب لذلك قبل طلوع الشمس إلى وقت الظهيرة، ويأتي داره فيمد السماط ثم يستريح، ويركب العصر ويرجع في ضوء المشاعل، ويصرف أكثر الليل في تدبير ما يعمله نهارًا»(١).

هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس. [د. ماجد عرسان الكيلاني/ ٢٤٧]. وهذا ابن شداد يصف حال الناس عند موته

(١) السبكي، طبقات الشافعية، ج٧، ص ٣٤٧.

(وفي صباح الأربعاء سابع عشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة (٤ آذار ١١٩٣) توفي صلاح الدين فغشي القلعة والبلد والدنيا مما لا يعلمه إلا الله تعالى، وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس إنهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم، وما سمعت هذا الحديث إلى على ضرب من التجوز والترخص إلا ذلك اليوم، فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبل الفداء لفُدي بالنفس » . [ابن شداد/ حطين/ زكار/ ١٨٤] .

تزاوج النجائب واعتلاء القمة

محصلة التزاوج بين القوتين المادية والمعنوية والقدرة على تجديد خريطة القيم ومن ثم ترشيد خريطة المصالح ثم التعامل معها بواقعية منضبطة بالشرع، جنبا إلى جنب مع الإعلام الصادق الذكي ذو الصبغة العقدية الشاملة (الأيدلوجية)، مع التمثل الحقيقي للرسالة بحيث تسطع القدوة، استكمال هذا التركيب السابق مكن صلاح الدين أن يتعامل مع معضلة عصره وعصرنا معضلة المحور الثاني – السياسة الشرعية – ألا وهي (الشرعية السياسية) .

باب: دعامة القيادة

الشرعية السياسية

جوهر الظاهرة السياسية ظاهرة السلطة - بغض النظر عن نطاقها أو أهدافها .... الخ -، لا يتصور وجودها إلا بتمثل مفهومين هامين لنوعين من العلاقات المحورية (نحن - هم)، (آمر - مطيع) .

ولكي يطاع الآمر يجب أن ينزله المأمور منزلة من تجب طاعته، سواء كان ذلك عن اقتناع محض أو مشوب ببعض أو كثير من الإكراه .

إقرار الكافة لـ (فئة أو كيان أوفرد) باستحقاق الولاية بحيث تقبل طاعته، هذا هو ما يمكن التعبير عنه بمصطلح الشرعية (بالمفهوم السياسي) لتشمل كل هؤلاء ذوي التماثل في تصورهم لحدود العلاقة (نحن- هم) .

هذا موضوع هام وخطير جدا غفل عنه كثيرون - ممن اضطلع بمحاولة التغيير للسلطة فكانت النتيجة خسائر لا حد لها - إلا قلة من النابهين أمثال إمام الرافضة خوميني في العصر الحديث ودهاه العباسيين في العصر القديم. ولهذا بسط ليس هذا ما محله

كانت هناك عدة عقبات أمام صلاح الدين ليصل لتلك المنزلة من الشرعية (الاستحقاق للولاية) والقبول له كقائد لا في مصر واليمن فقط بل ليشمل كل الميدان الممتد من كردستان وآمد (ديار بكر) مروراً بالجزيرة (العراق) والشام حتى النوبة واليمن، قائد للكافة (أهل الشوكة، الجند، القادة، العامة، الخاصة من الأعيان والعلماء، أهل الحل والعقد لكل محله، الزعامات وأصاحب النفوذ).

بل أن يضمن تأييد مقام الخلافة العباسي ذلك المقام الذي كان دائم القلق من أي قوة (فتية) بعد خبرة الدولة البوهيه وكذا سلطنة السلاجقة.

عقبات كؤد

وكانت هناك العديد من العقبات تحول بين صلاح الدين وهذه الشرعية التي لابد أن تكون من القوة والاتساع المكافئ للمكان وما عج به من أهل الزمان.

من هذه العقبات كما أسلفنا ميراث نور الدين محمود من الكوادر القيادية والشرعية الدينية والأعوان. وبيت صلاح الدين ليس ببيت ملك، بل والأسوأ من ذلك هو

كردى في عصر شهد الاستعلاء للجنس التركي، وتأمل وصف المؤرخ المعاصر له وليم الصوري فهو ينعته بأنه من أصل وضيع. فما بالنا وذلك الكردي يحاول إخضاع آل البيت الذي كان في الحقيقة تابع له.

لذلك لم يكن عجباً ذلك التحقير من جنود الموصل عندما زحفوا ضده لأول مرة عندما وصموه بأنه (كلب يعوي على سيده)!، لكن بعد سبعة عشرة عاماً يتعجب ابن الأثير تغير الموازين وهو يروي عمن شاهده (صلاح الدين) يودع ضيفه معز الدين قيصر شاه بن قلج أرسلان من ملوك الدولة السلجوقية في بلاد الأناضول، فلما أراد صلاح الدين الركوب عضده معز الدين وأركبه، وسوى ثيابه علاء الدين من آل زنكي فيكون التعليق (ما تبالي يا ابن أيوب أي موتة تموت يركبك ملك سلجوقي وابن اتابك زنكي) يعلق الأستاذ العبدة حفظه الله (فكأن ابن الأثير وراويه استنكرا أن يصل واحد من بني أيوب إلى هذه المنزلة) .

فما الذي حدث هل غير صلاح الدين النظرة الاجتماعية للأجناس؟ في الحقيقة هذا لم يحدث، ولم يستطيع الخطر الشديد المشترك الذي يلحم المنافسين



والخصوم أن يحل هذه المعضلة، فعندما أعد الصليبيون أعظم عدة للقيام بالهجوم المضاد على القدس بعث إليه قواده برسالة مما جاء فيها (إنك إن أردتنا نقيم فتكون معنا أو بعض أهلك، وإلا فالأكراد لا يدينون للأتراك، والأتراك لا يدينون للأكراد) مما يدل على رسوخ الحساسية العرقية، لكن الغريب أنهم لم يعتبروا كردية صلاح الدين بل كأنه سمى على الأجناس فهو ليس إلا قائدهم المسلم الذي لاينتظم أمرهم إلا به أو امتداده فكيف تم هذا؟ هنا يجدر بنا أن نشير في عجالة إلى بعض أركان الشرعية السياسية.

من أركان الولاية (الشرعية)

أن استحقاق الولاية (الشرعية بالمفهوم السياسي) له مكونان أحدهما مادي والآخر معنوي، ولابد من حد أدنى من القوة المادية وكذا من الدعائم المعنوية، هذا الحد الأدنى يتغير دائماً بتغير طرفي معادلة الشرعية (المادي / المعنوي) وكلما زاد أحدهم في مكون الشرعية يتجه القدر اللازم لتحصيل الحد الأدنى للطرف الآخر نحو السفول المقيد، في علاقة عكسية.

ويمكن النظر إلى تلك العلاقة من منظار طردي، باعتبار أن أي زيادة في أحدهما تصحبها زيادة في فاعلية الثاني.

هذا الأمر الهام أدركه صلاح الدين وأستخدمه كي يضاعف قوته من خلال ذلك القانون.

فبالإضافة للأثر الفعال لترشيد خريطتي المصالح والقيم كان للتمثل الصادق من صلاح الدين لرسالته المعلنة – المؤيدة بالقوة – فعل السحر، ولندع جيب يصف جزء من ذلك فالفضل كما يقولون ما شهدت به الأعداء: (ولكنه هو نفسه الذي جمع حوله جميع العناصر والقوى التي كانت تستهدف توحيد الإسلام في وجه الغزاة ووجهها وألهمها.

ولم يستعمل في تحقيق هذا الأمر شجاعته وعزمه الذاتيين في غالب الأحيان – وهما خلتان فيه لا تنكران – وإنما حقق ما حققه من ذلك بإنكاره للذات وتواضعه وكرمه، ودفاعه المعنوي عن الإسلام ضد أعدائه وضد من ينتمون إليه انتماء أسميا، على حد سواء. [دراسات ١٣٢].

(وأرى أنه لم يحاول أحد من الدارسين حتى اليوم أن يتفهم الطبيعة الحقيقية لتلك المثل العليا). [١٣٣ دراسات]

(والحق أن الفضل في اتساع دولة صلاح الدين في آسيا بين عامي ١١٨٢ و ١١٨٦ م فيما عدا الاستيلاء على قلعة آمد - إنما يعود في الأكثر إلى تأثير هذه العوامل لا إلى الأعمال العسكرية. وكانت أعماله الحربية أمام الموصل وحلب أقرب إلى المظاهرات منها إلى الحصار. وإذ كان صغار أمراء الجزيرة واثقين من خلق الرجل فإنهم من تلقاء أنفسهم وضعوا أنفسهم تحت حمايته. وبعد أن قام قادة عسكر نور الدين في حلب بأعمال لا تكاد تتعدى التظاهر بالحرب أقبلوا جميعاً لتقديم أصدق الخدمات. حتى في الموصل، كما يقول ابن الأثير في تاريخه، وجد صلاح الدين موالين له بين أمراء الجيش، وهؤلاء هم الذين أجبروا الأتابك الزنكى آخر الأمر على التسليم عام ١١٨٦م.

وربما كان علينا ألا نبالغ في مدى تأثير الفقهاء على العساكر، لكن في مراجعنا عدة أمثلة تشير إلى تدخلهم الحاسم، ..... وأبرز الأمثلة كلها قضية شاه أرمن خلاط، فقد كان هذا من اعتي خصوم صلاح الدين، ولكنه قبل نهاية الحرب الصليبية الثالثة قدم لصلاح الدين عساكره وولاءه طوعاً. [١٣٧دراسات].

(ولكن لما كان قد سعى إلى تحقيق حلمه بإنكار الذات والعدل والإخلاص، فإنه استطاع بهذه الأسس الأخلاقية وحدها أن يضطلع بالمهمة الملقاة على عاتقه وهى مهمة لم يسبق لها مثيل. فخلال قرون لم يسبق لأمير مسلم أن واجه مشكلة إبقاء جيشه في الميدان لمدة ثلاث سنوات وهو يحارب عدوا نشيطاً مغامراً .. وكان النظام العسكري الإقطاعي غير صالح أبداً لمثل هذه الحرب حتى ولو أمكن إيجاد نظام محدود لتبادل الخدمة العسكرية بين عساكر مصر والجزيرة. [دراسات ١٣٨].

ولأن المصلحة الشرعية ومن ثم الواقعية اقتضت حسن التعامل مع مقام الخلافة لإرضاء الله ثم نيل مزيد من الشرعية التي تترجم على الفور إلى قوة مادية، تعامل صلاح الدين بما يقتضيه الشرع مع آخر الخلفاء الأقوياء. ولنرى جانبا من التناقض بين منطلقه ومنطق عصره من هذه الحادثة التي تؤكد فيها أقواله أفعاله.

فقد طلب إليه رسول الخليفة أن يحول منطقة شهر زور في كردستان إلى الخليفة فوافق على ذلك وأجاب طلب الرسول. وعندما رأى غضب أمرائه وحنقهم أجاب قائلا:

(السلطان الخليفة ملك الخليقة، وهو مالك الحق والحقيقة . فإن وصل إلينا أعطيناه هذه البلاد فكيف شهرزور؟) .
ويخاطب مقام الخلافة قائلا : (وهذه المقاصد الثلاثة : الجهاد في سبيل الله، والكف عن مظالم عباد الله، والطاعة لخليفة الله، هي مراد الخادم من البلاد إذا فتحها ومغنمه من الدنيا إذا منحها والله العالم .. أنه لا يريد إلا هذه الأمور التي قد توسم أنها تلزم ولا ينوى إلا هذه النية) .

أما أثر تلك السياسة فهو هام جداً لإحراز النصر في المعارك، فبفضل (براءة) الخليفة له أصبح حاكماً شرعياً لولايتي الفرات وخابور لذا لما شرع في السيطرة علي هذه المواقع السابقة لـآل زنكي في الجزيرة يواجه بمقاومة لا ترقى لأهمية هذه الولايات .

ولأنه يعرف أن القوات المصرية لا تستطيع الكفاية بالغرض الأساسي من رسالته – طرد الصليبين وتحرير الأقصى – فقد ألح للحصول على منشور الخليفة من أجل الولاية على آمد ديار بكر المليئة بالرجال .

أما بالنسبة **للعلاقة (نحن – هم)** فهو لم ينتهج سياسة الدماء الزرقاء – المنفرة – سواء للجنس أو الصحبة : فكبار

القادة من كل جنس، وهو يضع في المراكز الهامة الرجال الأكفاء خريجي الكيانات الأخرى دون حساسية، بل مع وجود سجل خصومات سابقة، بشرط المتابعة المنهجية والالتزام بالجماعة.

من هؤلاء القادة أمثال: عماد الدين زنكي (بعد معالجة)، عز الدين جور ديك وهو من مماليك نور الدين.

من هؤلاء العلماء و القضاة أمثال: القاضي كمال الدين الشهرزوري الذي كان من كبار العلماء والوزراء في عهد نور الدين بل كان من أهل المشاحة مع صلاح الدين نفسه.

من هؤلاء السفراء أمثال: القاضي بهاء الدين الذي كان في حاشية وفد الموصل فمال إليه لما رأى حقيقته.

من هؤلاء الكتاب أمثال: عماد الدين الأصفهاني الذي بدأ في خدمة السلاطين السلاجقة.

ومن غير هؤلاء الكثير و الكثير.

وهكذا لا يترك الأكفاء المحرومين يشكلون مع غيرهم بلورات تخدم المنافسين، بل يستفاد من وجودهم - فوق الكفاءة - في اجتذاب المزيد من أمثالهم بالمبالغة في إكرامهم.

وهكذا تتسع دائرة (نحن) لدي صلاح الدين وتضيق بالتبعية عند منافسيه .

باب: من طلب الشي قبل أو بعد أوانه ابتلى بحرمانه

التوقيت المناسب

وحتى ذلك الحين فقد تجنب صلاح الدين المواجهات الكبرى حتى يعبئ القدر الكاف للمهمة الطويلة والشاقة التي تنتظره .

فقلد كان التوقيت من السمات الهامة في البرنامج العملي له . سواء مع الأعداء أو مع المنافسين . (وتمت الإشارة إلى أنه قد واجه العديد من المشاكل، واصطدم بأتابكة الموصل وسواهم، لذلك رحب بالفرصة التي توفرت لديه بقيام هدنة بينه وبين الفرنجة، وذلك حتى يتمكن من حل مشاكله هذه، ويكمل توطيد أركان دولته .

ويروى أنه أصيب أثناء مسعاه هذا في تشرين الأول لسنة ١١٨٥م بمرض عضال، حتى يئس من حياته، وعندما وقف بين الحياة والموت، رأى أن مصير المملكة اللاتينية معلق بالميزان، ورأى ببصيرته كحاكم شرقي أن موته كان

معناه بلا شك انعدام الوحدة بين صفوف المسلمين، والعودة إلى حياة الفوضى، حتى تتأتى فرصة جديدة لقيام حاكم قوي جديد، وكان هذا في أبسط معانيه حياة جديدة منحت للقوى اللاتينية في سورية، وفرصة لا تعوض لحل مشاكل مملكة القدس، والعودة إلى الاتحاد، لكن القدر قرر العكس، وبعدت المنية عن صلاح الدين، وبدأ الرجل العظيم يتعافى، وفي آذار لسنة ١١٨٦م أبرم معاهدة جديدة مع أتابكة الموصل، بقي بموجب بنودها الأمير عز الدين أميراً للموصل وسيداً لأعالي بلاد الرافدين، إنما مع الاعتراف بسيادة صلاح الدين والدعوة له .) [حطين / زكار / ١١١] .

باب: ضربة حظ أم تخطيط موفق

لما لا تكون مجرد مصادفات؟

لم يكن كل ما سبق مجرد خبط عشواء فوجئ صلاح الدين بثماره، فحاطب الليل أن سلم لا يرجع إلا بخشب . لقد كان يدرك تمام الإدراك لما يفعل ولما يريد ونكتفي في هذه العجالة بهذا النقل الذي يدل على إدراكه للمشكلة ونتاج إستراتيجيته عندما يخاطب بهاء الدين قائلا : (فإنني لو حدث بي حادث الموت ما تكاد تجتمع هذه العساكر) .

بل هو يدرك أثر الشرعية في تحقيق الانتصارات وكذا الاندحارات فهذا ابن الأثير يؤرخ: (وكنت حينئذ بالشام في عسكر صلاح الدين يريد الغزاة، فأتاه الخبر مع النجابين بمسير العسكر البغدادى، فقال: كأنكم وقد وصل الخبر بانهزامهم . فقال له بعض الحاضرين: وكيف ذلك؟ فقال: لاشك أن أصحابي وأهلي أعرف بالحرب من الوزير، وأطوع في العسكر منه، ومع هذا، فما أرسل أحدا منهم في سرية للحرب إلا وأخاف عليه، وهذا الوزير غير عارف بالحرب، وقريب العهد بالولاية، ولا يراه الأمراء أهلا أن يطاع، وفى مقابلة سلطان شجاع قد باشر الحرب بنفسه، ومن معه يطيعه. وكان الأمر كذلك، ووصل الخبر إليه بانهزامهم فقال لأصحابه: كنت أخبرتكم بكذا وكذا، وقد وصل الخبر بذلك).

أما عن طريقة استخدام المصالح وإعادة تحليلها ثم تقسيمها كي تخدم إستراتيجيته، فهذا القاضي الفاضل يشرح جزء منها بلسان بليغ:

(فتحنا مدينة حلب، وتسلمنا قلعتها التي ضمنت أن

نتسلم بعدها بمشيئة الله قلاعاً، وعوض صاحبها من بلاد الجزيرة ما اشترط عليه به الخدمة في الجهاد بالغدة الموفورة، فهي بيدنا بالحقيقة، لأن مرادنا من البلاد رجالها لا أموالها، وشوكتها لا زهرتها، ومناظرتها للعدو لا نضرتها، والأوامر بحلب نافذة، والرايات بأطراف قلعتها آخذة، وجاء أهل المدينة يستبشرون، وقد بلغوا ما كانوا يأملون، وأمنوا ما كانوا يحذرون، وعوض صاحبها ببلاد من الجزيرة على أن تكون العساكر مجتمعة على الأعداء، مرصدة للاستدعاء، فالبلاد بأيدينا لنا مغنمها، ولغيرنا مغر مها، وفى خدمتنا ما لا نسمح به وهو عسكرنا، وفى يده ما لا نضن به وهو درهمنا، شرطنا على عماد الدين النجدة في أوقاتها، والمظاهرة على العداة عند ملاقاتها، فلم يخرج منا بلد إلا إلينا عاد عسكره، وإنما استنبنا فيه من يحمل عنا مؤنته ويدبره، وتكون عساكره إلى عساكرنا مضافة، ونتمثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ [التوبة: ٣٦]. [الروضتين].

وهو نقل لا يحتاج إلي تعليق إنما إلي إعادة قراءة وتأمل

فهو يلخص فلسفة صلاح الدين في إعادة ترسيم المصالح.

تجنيد أبناء الملوك

ولكي ندرك مدي فاعلية تلك السياسة وأثرها لابد أن نعود لأصل القصة قصة حلب وما حدث مع عماد الدين زنكي؟ الذي يمثل مثال تطبيقي جيد لنظرية صلاح الدين.

فلنبدأ من البداية وابن الأثير يرسم صورة لآخر لحظات الملك الصالح بن نور الدين محمود وهو يحصن آل زنكى من سيطرة صلاح الدين فيقول: (فلما أيس من نفسه أحضر الأمراء كلهم وسائر الأجناد، واستحلفهم لأبن عمه أتابك عز الدين، وأمرهم بتسليم مملكته جميعاً إليه، فقال له بعضهم: إن ابن عمك عز الدين له الموصل وغيرها من البلاد من همذان إلى الفرات، فلو أوصيت بحلب للمولى عماد الدين ابن عمك لكان أحسن، ثم هو تربية والدك وزوج أختك، وهو أيضاً عديم المثل في الشجاعة والعقل والتدبير، وشرف الأعراق، وطهارة الأخلاق والخلال التي تفرد بها، فقال: إن هذا لم يغب عنى، ولكن قد علمتم تغلب صلاح الدين على عامة بلاد الشام سوى ما بيدي ومعي، فإن سلمت حلب إلى عماد الدين يعجز عن حفظها

من صلاح الدين، فإن ملكها صلاح الدين فلا يبقى لأهلنا معه مقام، وإذا سلمتها إلى عز الدين أمكنه أن يحفظها لكثرة عساكره وبلاده وأمواله، فاستحسن الحاضرون قوله وعلموا صحته وعجبوا من جودة رأيه مع شدة مرضه، ومن أشبه أباه فما ظلم.

لكن عماد الدين الذي يتيم بحلب لا يرى غيره أحق بها فقال لهم: (إن سلمتم إلى حلب وإلا سلمت أنا سنجار إلى صلاح الدين) فوافق أخوه أتابك عز الدين زنكي على المبادلة وهو كاره ... فلما سمع أتابك عز الدين بوصول صلاح الدين الشام جمع عساكره وسار عن الموصل خوفاً على حلب فاتفق أن بعض الأمراء الأكابر مال إلى صلاح الدين وعبر الفرات إليه، فلما رأى أتابك ذلك لم يثق بعده إلى أحد من أمرائه إذ كان ذلك الأمير أوثقهم في نفسه، فعاد إلى الموصل. (ما الذي جعله يميل لصلاح الدين الذي لم يسبق معاشرته ويترك من يعتبره لديه مكين؟!، تأمل أخي القارئ هذا الحدث مرة أخرى لتدرك حجم الهالة المغناطيسية التي أحاطت بصلاح الدين في تجذب إليه الأجرام الكبرى لتدور في فلكه!).

قال القاضي ابن شداد :

لما نزل السلطان على حلب استدعى العساكر من الجوانب، فاجتمع خلق كثير وقاتلها قتالا شديداً، وتحقق عماد الدين زنكي أنه ليس له به قبل، وكان قد ضرس من اقتراح الأمراء عليه، وجبههم إياه فأشار إلى حسام الدين طمان أن يسفر له مع السلطان في إعادة بلاده وتسليم حلب إليه، واستقرت القاعدة ولم يشعر أحد من الرعية ولا من العسكر حتى تم الأمر، ثم أعلمهم وأذن لهم في تدبير أنفسهم، وخرجت العساكر إلى خدمته إلى الميدان الأخضر ومقدمو حلب وخلع عليهم، وطيب قلوبهم وأقام عماد الدين بالقلعة يقضي أشغاله وينقل أقمشته وخزائنه).

[الروضتين ٣٥٩] .

(وهنا يبرز سؤال لماذا يُترك أبناء الملوك من أمرائهم؟، وكيف تنضم العساكر الحلبية فوراً لهذا الذي كانوا بالأمس بل من ساعات يقاتلون؟ ولماذا يترك ذلك القائد الذي يقاتله هو وكل آل بيته ليفوز بهذه المقايضة؟ كيف يتركه يخرج بكل أثقاله؟!) .

لعلنا لم ننس بعد ما سطره القاضي الفاضل يكشف لنا جزء من خرائط المصلحة الأيوبية.

وبعدما أجلى عماد الدين زنكي عن قرة عينه (حلب) الذي نزعها منه صلاح الدين (إذ أن موقع حلب الإستراتيجي لإحكام القبضة التامة أمام القوى الصليبية لم يجعل أمام صلاح الدين أي خيار آخر).

كنا نتوقع حقد وحسد مادام الليل والنهار، لكن نفاجئ بهذا السلوك عندما يتوجه صلاح الدين لأصل آل زنكي (الموصل)، يقول ابن شداد: (ووصله في ذلك اليوم رسول يخبره أن ملوك الشرق بأسرهم قد اتفقت كلمتهم على قصد السلطان إن لم يعد عن الموصل وماردين، وأنهم على عزم ضرب المصاف معه إن أصر على ذلك). وقال العماد: (ثم سار السلطان لقصد الموصل، فنزل على دجلة بقرب الموصل في شعبان وعزم على أنه يشتي في ذلك المكان، فخرجت من الموصل نساء أتين إليه بكتاب متعرضات للشفاعة، فأكرمهن السلطان، ووعدهن بالإحسان وقال: قد قبلت شفاعتكن لكن لابد من



مصلحة تتم ومصالحة نفعها يعم واستقر الأمر على أن يكون عماد الدين زنكى صاحب سنجار أخو صاحب الموصل وسيطاً في إصلاح ذات البين، وحكماً فيما يعود لمصلحة الجانبين) . [٣٦٩ الروضتين] .

بل يظهر معدن آل زنكي الذي صقل بعد خروجه من مصهر برنامج وخطة صلاح الدين. الذي جاءته جحافل لا قبل لأحد بها انتقامًا مما صنع بالصليبيين، فما الذي حدث منهم ومعهم؟

عندما حشد الصليبيين أقصى طاقتهم، حتى النساء! (ووصلت في مركب ثلاث مائة امرأة فرنجية مستحسنة، اجتمعن من الجزائر وانتدبن للجزائر، وقصدن بخروجهن تسبيل أنفسهن للأشقياء، وأنهن لا يمتنعن من العزبان، ورأين أنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القربان، وزعمن أن هذه قربة ما فوقها قربة لا سيما فيمن اجتمعت فيه غربة وعُزبة) . (وأبق من عسكرنا من المماليك الأغبياء جماعة اتبعوا من غوى، فمنهم من رضي للذة بالذلة، ومنهم من ندم على الزلة، وأمر الهارب إليهم لاتهامه يشتد، وباب

الهوى عليه يستد، وما عند الفرنج على العزباء إذا أمكنت منها العَزَب حرج، وما أزكاها عند القسوس إذا كان للعزبان المضيقين من فرْجها فرَج). [(٤٢١) (٤٢٢) الروضتين].

أما الأخريات فقد جئن محاربات، (وفي يوم الوقعة طلعت منهن نسوة، لهنّ بالفرسان أسوة، وفيهن مع لينهنّ قسوة، وليس لهنّ سوى السوابغ كسوة، فما عرفن حتى سُلبن وعُرّين، ومنهنّ عدَّة سبين واشترين، وأما العجائز فقد امتلأت بهنَّ المراكز، وهن يشدّدن تارة ويرخين، ويحرضن ويُنخين، ويقلن: إن الصليب لا يرضى إلا بالإباء، وإنه لا بقاء له إلا بالفناء، وإن قبر معبودهم تحت استيلاء الأعداء، فانظر إلى الاتفاق في الضلال بين الرجال والنساء) [(٤٢٣) الروضتين].

اجتمعت حشود هائلة، فاستنفر صلاح الدين المسلمين، فجاءت الفرصة لمن كان من الحاقدين أن يصفي حسابه فيطعن من الخلف أو ينقض الإتفاق أو على أقل تقدير ألا يمد له يد المعين، ولكن فماذا صنع أل زنكي أجمعين؟

(والعساكر الإسلامية تتواتر وتتواصل، فوصل في الثاني والعشرين من ربيع الآخر عماد الدين زنكي بن

مودود بن زنكي صاحب سنجار، وهو ابن أخي نور الدين رحمه الله وصهره زوج ابنته فلقيه السلطان بالاحترام والتعظيم، ورتب له العسكر في لقائه، وسار به حتى أوقفه على العدو وعاد معه إلى خيمته وأنزله عنده، وكان صنع له طعاماً لائقًا بذلك اليوم، فحضر هو وجميع أصحابه، وقدم له من التحف واللطائف ما لا يقدر عليه غيره، وكان قد أكرمه بحيث طرح له طراحة مستقلة إلى جانب وبسط له ثوبًا عند دخوله، وضربت خيمته على طرف الميسرة على جانب النهر.

وفي سابع من جمادى الأولى وصل ابن أخيه صاحب الجزيرة معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي فلقيه السلطان وأنزله إلى جانب عمه عماد الدين وفي تاسع جمادى الأولى وصل ابن صاحب الموصل وهو علاء الدين خرم شاه بن عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي نائبًا عن أبيه ففرح السلطان به فرحًا شديداً وتلقاه من بعيد هو وأهله واستحسن أدبه، وأنزله عنده في الخيمة، وكارمه مكارمة عظيمة، وقدم له تحفًا حسنة، وأمر بضرب خيمته بين ولديه الأفضل والظاهر، وفي أواخر الشهر وصل

صاحب إربل زين الدين يوسف بن زين الدين على فأكرمه السلطان وأنزله عند أخيه مظفر الدين يعني في الميسرة).
[(٤٢٩) (٤٣٠) الروضتين].

باب: الفرد والفريق مع البنية التحتية

كيف يُنتج وأنى للخطط أن تنجح؟

ونحن نحاول في هذه الدراسة إبراز عبقرية مشروع السياسة الشرعية لصلاح الدين وأساليب تنفيذه يجب إلا نغفل عدة قضايا خطيرة، كيف أُنتج مثل هذا الكادر (صلاح الدين) وهل كان ممكن أن تنجح خططه إلا في بيئة مناسبة وكيف وجدت هذه البيئة.

وهل كان صلاح الدين في الحقيقة فرد أم فريق – و إن كنا لا نستطيع تفصيل الإجابة و إلا اتسع هذا البحث جداً – لكن لابد أن نشير إلى أن كل ذلك كان ثمرة جهود سابقة متراكمة بذلتمن قبل ميلاد صلاح الدين بكثير، أنها جهود أجيال وفي كل التخصصات.

وهو ككادر فذ لم يأت من الهواء إنما هو أحد خريجي مدرسة التقي العملاق نور الدين محمود زنكي.

أما فيما يتعلق بالإجابة عن التساؤل أكان الإنجاز لفرد عظيم وحيد أم شاركه غيره؟ فالإجابة بدهية:

الكمال لله وحده وجبل كل البشر على النقص وكلما ارتقى الحكيم في سلم الكفاءة والعبقرية – ومهما كانت عظمته – أدرك حاجته لمن يعاونه ويشير عليه، فيجبر نقصه ويشاركه في وزره.

ومن أجل ذلك نص القرآن على الشورى ﴿ **وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ** ﴾ بل أمر بها سيد أجمعين ﷺ ﴿ ... **فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ** ... ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ومن سعد القائد – أن تعذر وجود مؤسسة قيادة – أن يوفق فيعضد ببطانة تأمره بالخير، فعن أبي أيوب رضي الله عنه مرفوعا: (ما بعث الله من نبي و لا كان بعده من خليفة إلا كان له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر وبطانة لا تألوه خبالا فمن وقي بطانة السوء فقد وقي). [٥٥٨٠ صحيح الجامع].

ومستشار يصلح بفكره التدبير، وبوزير يناصفه الأحمال، فعن عائشة رضي الله عنها مرفوعا: (إذا أراد الله بالأمير خيرا جعل له وزير صدق إن نسي ذكره و إن ذكر أعانه و إذا

أراد به غير ذلك جعل له وزير سوء إن نسي لم يذكره و إن ذكر لم يعنه) . [٣٠٢ صحيح الجامع] .

وقد من الله عليه برجال من النوعية الجيدة يقول العبدة حفظه الله في دراسته القيمة : (أيعيد التاريخ نفسه؟ دراسة لأحوال العالم الإسلامي قبل صلاح الدين مقارنة مع واقعنا المعاصر) : (. . .فعندما يكون الحاكم صالحاً يحب أهل الدين والخير، يوفقه الله سبحانه وتعالى إلى بطانة صالحة من وزراء وأمراء وهذا ما ينطبق تماماً على صلاح الدين، فقد وفق إلى وزير صدق هو القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني - كما وفق صلاح الدين إلى قادة جيوش مخلصين في الجهاد . . فمن أمراءه عز الدين جور ديك وهو من مماليك نور الدين، جمع الديانة والشجاعة، وسيف الدين جاولي، وكان شهماً شجاعاً يرجع إلى دين وعبادة، وأبو الهيجاء ابن السمين وابن المشطوب وبهاء الدين قراقوش . . [العبدة ٩٥]

لكن الحظ الأوفى من كل ذلك تمثل وأجتمع في شخصية القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني الفلسطيني، الذي يترجم له الأستاذ العبدة بقوله : ومن

هذه المسارب التي تجمعت للإحياء السني في الشام ومصر شخصية سيكون لها أثر كبير وفعَّال في مساعدة صلاح الدين في مشروعه الجهادي ومشروعه لتوحيد المناطق التي في بؤرة الصراع مع الصليبيين، إنَّه كاتب متمرن في دواوين الحكم والإدارة في القاهرة، كاتب فلسطيني من مدينة عسقلان المحتلة، ومن أسرة علمية، إنه عبد الرحيم البيساني الملقب بـ(القاضي الفاضل) .

ولد عبد الرحيم في عسقلان عام ٥٢٦ هـ وقد تعرضت هذه المدينة لهجمات الفرنجة من البر والبحر. وفي عام ٥٤٣هـ أرسله والده إلى القاهرة ليتدرَّب على الإدارة والكتابة. عمل عبد الرحيم في ديوان المراسلات ونجح نجاحاً باهراً، وكانت مصر في الأعوام (٥٥٨ ـ ٥٦٤هـ) تتخبط في سياستها تخبطاً شديداً؛ فالمؤامرات مستمرة بين الوزراء وقصر الحكم، وبين الوزراء أنفسهم، يستعينون مرة بالصليبيين خوفاً من دولة نور الدين في دمشق، ومرة يستعينون بنور الدين، أو يحاولون ضرب هؤلاء بعضهم ببعض، وبسبب الاستعانة بالفرنجة فرض عليهم الملك الصليبي (أموري) ضرائب عالية أنهكت مصر مالياً .

عاش عبد الرحيم هذه الأجواء السياسية الفاسدة، وهذه الخيانة للدين وللأمة، وعندما التقى بالجيش الشامي الذي جاء لإنقاذ مصر من الفرنجة والذي يقوده (أسد الدين شيركوه) عم صلاح الدين، تطلعت نفس هذا الكاتب لهذا التوجه الذي يقوده نور الدين من دمشق، وكانت هذه نقطة الانعطاف في حياة عبد الرحيم؛ حيث أصبح المستشار السياسي والإداري لصلاح الدين الذي تسلم الوزارة بعد عمه أسد الدين.

كان أول خطوة لإنجاز المشروع الجهادي قيام صلاح الدين بمساعدة القاضي الفاضل بإلغاء الدولة الفاطمية والارتباط رسمياً بالخلافة العباسية في بغداد. وفي رسالة من القاضي الفاضل إلى الخليفة العباسي: « ونحن نقاتل العدوين: الباطن والظاهر، ونصابر الضررين: المنافق والكافر، حتى أتى الله بأمره وأيدنا بنصره » ..... ويقول في رسالة أخرى إلى الخليفة: « فأضحى الدين واحداً بعد ما كان أدياناً، والجمعة جامعة... ». فهاجس الوحدة الإسلامية كان ملازماً للقاضي الفاضل؛ ولذلك كانت الخطوة الثانية توحيد بلاد الشام ومصر بعد وفاة نور الدين

محمود، وكانت رسائل القاضي إلى زعماء دمشق يدعوهم فيها إلى الوحدة ويمهد لمجيء صلاح الدين.

لم يكن القاضي الفاضل كاتباً ووزيراً سياسياً فحسب؛ بل كان يعلم أنَّ قوة الدولة في العدل والعلم، فكان ينصح صلاح الدين بأن يكون على صلة بالقواعد الشعبية وبمشاكل الناس، ويقول له: «يا مولانا: مظالم الخلق كشفُها أهم من كلّ ما يُتقرَّب به إلى الله..».

وهو الذي أنشأ المعاهد التربوية التعليمية.

بعد هذه الخطوات الناجحة كان لا بد من الجهاد لتحرير الأرض المباركة، وخاصة مدينة القدس؛ فكان القاضي الفاضل يشرف بنفسه على تجهيز الجيوش وما يسمى اليوم بالعمليات «اللوجستية»، وأصبح جهاد العدو أكبر همٍّ عنده؛ فكان ينصح صلاح الدين بألاَّ يتعب نفسه بضم مدينة الموصل ويكتفي ببلاد الشام ومصر؛ ليتفرغ للفرنجة المحتلين، وكان صلاح الدين قد مرض قبل حصار الموصل، ويقول له القاضي: «يجب ألا تحارب مسلماً بعد ما شفاك الله من المرض، ووجِّه اهتمامك لمجاهدة الفرنج».

وصلاح الدين يعلم أهمية رأي القاضي **الذي يملك تصوراً**

استراتيجياً لأسباب النصر ؛ فكان يستشيره في كل صغيرة وكبيرة، وكان من نتائج هذا التلاحم بين القيادة العسكرية والقيادة الإدارية العلمية، ومن نتائج هذا الإحياء السني والوحدة بين الشام ومصر؛ أن بدأت الانتصارات الكبرى لصلاح الدين وأولها معركة حطين ٥٨٣ هـ ١١٨٧ م حين نزل صلاح الدين عن فرسه وسجد شكراً لله وبكى من فرحه بهذا النصر. وتلا ذلك فتح عكا وعسقلان، ثم إعادة القدس إلى ولاية الإسلام وكان يوماً من أيام الله». [الإحياء السني/ الشيخ محمد العبدة /منشورة على النت].

ثم استمع لقول العماد لترى قدره كمستشار ووزير (ووصل القاضي الفاضل من مصر إلى معسكر المنصور.. وكان السلطان متشوقاً لقدومه، وطالت مدة البين، لغيبته عنه سنتين، على أن أمور الممالك بمصر كانت بحضوره مستتبة، وكان السلطان شديد الوثوق بمكانه، دائم الاعتماد والاستناد على إحسانه والى أركانه، فإن استقدمه خاف على ما وراءه من المهام، وإن تركه نال وحشة التفرد بالقضايا والأحكام، وكان يكاتبه بشرح الأحوال يستشيره ثم وصل في ذي الحجة واجتمع الشمل، واستأنس الملك

بصاحب تدبيره، وتأسس ركنه برأي مشيره.) [(٤٣٧) الروضتين].

وقال: وكان - رحمه الله - للحقوق قاضياً، وفي الحقائق ماضياً، سلطانه مطاع، والسلطان له مطيع، وفضله جامع، وشمل الفضل به جميع، وهو واحد الزمان وصاحب القرآن، قد خصه الله بالمكانة والإمكان، والسلطان - رحمه الله - من مفتتحات فتوحه ومختتماتها و مبادي أمور دولته وغاياتها، ما أفتتح الآخرين إلا بأقاليد آرائه ومقاليد غناه وغنائه.

أما في باب التذكير والتقويم فنكتفي بهذه الرسالة يخاطبه بعد كسرة فيقول القاضي الفاضل: (إنما أوتينا من قبل أنفسنا، ولو صادقناه لعجل لنا عواقب صدقنا، ولو أطعناه لما عاقبنا بعدونا ولو **فعلنا ما نقدر عليه من أمره لفعل لنا ما لا نقدر عليه إلا به،** فلا يستخصم أحد إلا عمله، ولا يلم إلا نفسه، ولا يرج إلا ربه، ولا تنتظر العساكر أن تكثر، ولا الأموال أن تحضر، ولا فلان الذي يعتقد عليه أن يقاتل، ولا فلان الذي ينتظر أن يسير، فكل هذه مشاغل عن الله ليس النصر بها ولا نأمل أن يكلنا الله إليها ، والنصر به، واللطف منه، والعادة الجميلة له، ونستغفر الله - سبحانه -

من ذنوبنا فلولا أنها مسد طريق دعائنا لكان جواب دعائنا قد نزل، وفيض دموع الخاشعين قد غسل، ولكن في الطريق عائق، خار الله لمولانا في القضاء السابق واللاحق [(٤٥٥) الروضتين].

ويحدد له حد المفاوضات السياسية بالحدود الشرعية فيقول الفاضل: (.. وكل مقترح يجاب إليه إلا ثغراً يسير نصرانياً بعد أن أسلم، أو بلداً يخرس فيه المنبر بعد أن تكلم .. وما ابتلى الله - سبحانه - من عباده إلا من يعلم أنه يصبر، وأمور الدنيا ينسخ بعضها بعضاً وكأن ما قد كان لم يكن، ويذهب التعب ويبقى الأجر ..) [٤٦٢ الروضتين]

ولم يكن الفاضل من أهل العلم والعمل فقط بل كان من أهل الجود والإنفاق فهو يختار أحب ماله لينفق (اللهم إنك تعلم أن هذا الربع ليس شئ أحب إلي منه. اللهم أشهد أني وقفته على فكاك الأسرى) [البداية/ابن كثير ٢٤/١٣/].

ويحفظ له صلاح الدين فضله فهو (يقول لأصحابه وقواده: « لا تظنوا أني فتحت البلاد بالعساكر، إنما فتحتها بقلم القاضي الفاضل » [العبدة].

وليس عجيبًا أن يكون المستشار السياسي والكافي الإداري والمدعم النفسي والكفء في تحمل المسئوليات من رجال الشرع فإن هذا هو سمت العلماء العاملون، لكن العجيب ألا تكون صورة الرسول القائد (ﷺ) ومن بعده صحابته أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاذ بن جبل و من هو مثل عمر بن عبد العزيز ومن جاء بعدهم أمثال ابن المبارك وابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب... وأشباههم هي الصورة التي يرجوها طلبة العلم الآن.

وهذا ابن حجر الشافعي وهو يتعرض لحديث «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**» فيقول: (... فإن اجتماع الصفات المحتاج إلى تجديدها لا ينحصر في نوع من أنواع الخير، ولا يلزم أن جميع خصال الخير كلها في شخص واحد، إلا أن يدعي ذلك في عمر بن عبد العزيز... وأما من جاء بعده فالشافعي وإن كان متصفًا بالصفات الجميلة، إلا أنه لم يكن القائم بأمر الجهاد والحكم بالعدل..) [فتح الباري/ كتاب الاعتصام، الباب العاشر]

والأمة الآن في حال لا يخفى علينا ولن يقوم بأمرها إلا رجال شرع يسعون لاستكمال صفات الخير كلها.

قصور يدل على العظمة

ولكن ماذا عن صلاح الدين في مجال الإدارة المدنية وكقائد حربي؟!

في الحقيقة لربما صدمت الحقيقة محبي هذا القائد العظيم، فهو لم يكن في المجال الإداري والحربي إلا مجرد رجل من عصره، بل لقد فوض الإدارة لأخيه العادل سيف الدين واستعمل القائد الفاضل رئيس الديوان، أما في المجال الحربي فقد تعرض لكثير من الانتقادات سواء من قواده أو معاصريه.

ولم يكن إنجاز صلاح الدين بناءاً على تكنولوجية متفوقة أو عبقرية حربية متوقدة (استدرج صلاح الدين الصليبيين في موقعة حطين باستخدام استراتيجية نفسية تم توظيفها عسكرياً) أو بناءاً على نظم إدارية متقدمة! إذ لو كان الأمر كذلك لربما نسب الإنجاز لهذا السبب أو ذاك، ولأصبح التدليل على عبقرية برنامجه في مجال السياسة الشرعية محل جدل كبير.

لكن كل ذلك لم يحدث وهكذا تعطى درجات إضافية لمنظومته الراقية.

باب: توسمات أنصار وأعداء الإسلام

صار أهلا لانتظارهم نصر الله على يديه

الناس يشعرون بحجوم ونوازع قادتهم، فتخرج خبيئة آرائهم كلمات وأشعار، فهذا يخاطب: أسد علي وفي الحروب نعامة، وهذا لا يناسب حقيقته إلا (النكات) الفكاهية، يعالجون بها كآبة خيبة الأمل.

لكن صلاح الدين يخاطب بالأمل الكبير، تعلق بشخصه، فهم يستعجلونه بأدب ويبشرونه في إصرار، قال العماد: (تم فتح حلب في صفر من هذه السنة، ومدح القاضي محيي الدين بن الزكي السلطان بأبيات منها):

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر

مبشر بفتوح القدس في رجب

فوافق فتح القدس كما ذكره، فكأنه من الغيب ابتكره). [(٣٥٨) الروضتين].

(قال: ويشبه هذا أنني في سنة اثنتين وسبعين طلبت من السلطان جارية من سَبي الأسطول المنصور في أبيات وهي:

يؤمل المملوك مملوكة

تبدل الوحشة بالأنس

تخرجه من ليل وسواسه

بطلعة تشرق كالشمس

فوحدة العزبة قد حركت

سواكن البلبال والمس

فلا تدع يهدم شيطانه

ما أحكم التقوى من الأسَ

فوقع اليوم بمطلوبه

مما سبى الأسطول بالأمس

لا زالت وهاباً لما حازه

سيفك من حور ومن لُعْس

وإنني آمل من بعدها

كرائم السبي من القدس

قال: فجاء الأمر على وفق الأمل، فوهب لي ما أملت عام القدس). [(٣٦٤) الروضتين].



لماذا لا نرى الإنجاز من منظار عدونا!

وليم الصوري هو رئيس أساقفة صور المقرب من ملك مملكة القدس الصليبية أموري الأول الذي خطط لاحتلال مصر فوقع اختياره على وليم ليجمع بين رئاسة الأساقفة وتأريخ الحملة مما جعله صاحب علاقات وثيقة بالبلاط الملكي.

هذا الرجل الذي يوصف تاريخه بأنه أفضل وأكمل مصدر لاتيني أرخ للحروب الصليبية (حطين/ ١٩) يقول: «ينبغي عليَّ هنا أن أنحرف عن مسار روايتي، ليس لأتجول هنا وهناك دونما هدف، بل لتقديم شيء ثمين، فالسؤال الذي أسأله دائمًا بحق هو: لماذا كان أجدادنا، يتمكنون بشجاعة من التصدي في المعركة، وهم أقل عددًا لقوات عدوة أكبر منهم بكثير، وغالبًا - بنعمة الله - ما كانت قوة صغيرة من قواتنا تحطم حشودًا كبيرة للعدو، حتى صار نتيجة لهذا اسم الصليبيين يبعث الرعب في قلوب الأمم التي لا تعرف الرب (يقصد أمة الإسلام)، وهكذا تجلت عظمة الرب في أعمال أجدادنا، وعلى العكس من هذا نجد رجال عصرنا غالبًا ما تلحق بهم الهزيمة من قبل قوات أصغر منهم لا بل عندما يكونون بأعداد أكبر ويحاولون تنفيذ

بعض المهام ضد الأعداد الأقل قوة منهم، فإن جهودهم تتبدد وهم غالبًا ما يجبرون على الهزيمة.

... وبعدما يعلل ذلك بأنه نتيجة لنقص ديانة أهل عصره ثم يثني بأن أهل الشرق كانوا معتادين على السلم لا الحرب يختم بإظهار إنجاز صلاح الدين فيقول: ....
وسبب ثالث ليس أقل أهمية وتأثيرًا يفرض نفسه على مداركي هو أنه كان لكل مدينة شرقية فيما مضى حاكمها الخاص، ولنقل على طريقة أرسطو لم يكن هؤلاء يعتمدون على بعضهم البعض، ونادرًا ما تحركوا بنفس الاتجاه بل غالبًا ما ساروا في الاتجاهات المتعاكسة، لأن كلا منهم يخشى من حلفائه أكثر من خشيته من الصليبيين، ولذلك فإنهم لن يستطيعوا، أو بالحري هم ليسوا على استعداد لأن يتحدوا في سبيل طرد الخطر العام، أو يسلحوا أنفسهم لتدميرنا.

لكن الآن، – وهذه مشيئة الله – جميع الممالك المجاورة لنا أصبحت تحت قيادة واحدة.

وهكذا كما سلف القول، جميع الممالك حولنا تطيع حاكمًا واحدًا، وينفذون إرادة رجل واحد، ويلتزمون بأوامره طوعًا وكرهًا، وهم جاهزون، كقوة واحدة لحمل السلاح

لقتالنا، **وما من واحد منهم يمكنه التورط بعمل يخدم به ذاته**، وفيه مخالفة أو عدم مراعاة لأوامر سيده، وهذا السيد هو صلاح الدين الذي أشرنا إليه مراراً من قبل وفي مناسبات عدة، فهو الذي يضع هذه الممالك تحت إمرته، والآن إنني أعتقد أن هناك حاجة ملحة لأن يبذل كل جهد ممكن لمواجهة هذا الرجل العظيم والتصدي له في تقدمه السريع وفي انتصاراته المتوالية، التي ستوصله حتماً إلى أوج طموحاته، فالشعور العام أنه كلما ازداد قوة سيبرهن على أنه عدو مرعب لنا».) [William of Tyre (٤٠٦-٤٠٨)، / حطين/ زكار/ ١٩، ١٠٢ - ١٠٤].

باب: نهاية جهد الرافعة

لا تجاوز بطموحك سقف قدرتك

وكنا في فصل سابق قد أشرنا إلى استراتيجية صلاح الدين لضبط العمل وتوحيد الجهد والتي كان أحد محاورها ترشد رؤية الأفراد لمصالحهم الخاصة والارتقاء بها دون إغفالها لتصب في نهر مصالح الأمة.

وكنا قريباً قد دحضنا خطأ من ينكر وجود خطة عبقرية من وضع صلاح الدين ومستشاره لتوحيد الأمة،

ومن لم يقنع بذلك ومازال في شك ويرى أن ذلك التصور هو محض ابتداع، (فعندهم لم يرد بخلد صلاح الدين فضلاً أن يعي أثر تضارب المصالح الذاتية والعامة على أفعال قادة ووجهاء الأمة).

فسنعيد التدليل على الرؤية الثاقبة لصلاح الدين الأيوبي التي مكنتـه من اللعب على أوتار المصالح بعد ترشيدها، بل والأكثر من ذلك سنراه يدرك النقطة التي عندها قد تكسر الرافعة فيتحول من الصلابة العسكرية إلى اللين الدبلوماسي.

لذا نورد هنا مساجلة تاريخية بين صلاح الدين وهؤلاء يتضح بها محاولته ربط مصالح هؤلاء بالمسئولية الشرعية لهم، وحين يخذلونه يتأسف على توقعه عودتهم لحالتهم الأولى من تغليب خطوط النفس على الواجب الشرعي الآمر بالوحدة الشرعية لتكون الأمة صفاً واحداً أمام عدوها.

هذه المساجلة التي كانت بعد الحشود الجبارة التي بعثت بها أوربا كرد فعل على تحرير المسلمين للقدس وما صاحب ذلك من إثارة للحمية الجاهلية فقد (قام كونراد - أحد أفراد الأسرة الملكية للقدس - مع المقدمين الجديدين للاستبارية والداوية وجميع الأساقفة اللاتين، بمراسلة ملوك

أوربة الغربية والبابوية ورجال الإقطاع وسواهم طالبن النجاة، حتى ليروي أن كونراد «صور القدس في ورقة عظيمة وصوّر فيه القيامة التي يحجون إليها ويعظمون شانها، وفيها قبر المسيح الذي قبر فيه بعد صلبه، بزعمهم، وذلك القبر هو أصل حجهم، وهو الذي يعتقدون نزول النور عليه في كل سنة في عيد من أعيادهم، فصور القبر، وصور عليه فرسا عليه فارس مسلم راكب عليه، وقد وطئ قبر المسيح، وقد بال الفرس على القبر، وأبدى هذه الصورة - وراء البحر في الأسواق والمجامع، والقسوس يحملونها، ورؤسهم مكشفة، وعليهم المسوح، وينادون بالويل والثبور، وللصور عمل في قلوبهم، فإنها اصل دينهم، فهاج بذلك خلائق لا يحصى عددهم إلا الله تعالى». كما أرسل كونراد رئيس أساقفة صور واسمه جوسشوس إلى أوربا وحمله العديد من رسائل الاستغاثة. [حطين/زكار/ ١٧١].

جاءت هذه الحشود وحاصرت عكا وعقدت اتفاقية ثم أبادت هذه الحملة حامية عكا بمنتهى الوحشية غدرا، وكانت الوجهة بعد ذلك بديهة، إنها القدس.

اتخذ صلاح الدين قراره بالدفاع عن القدس وكان صلبا في موقفة من ريتشارد قلب الأسد فماذا حدث (لكن

هذا التصلب اضطر صلاح الدين إلى التخلي عنه عندما علم بنية رتشارد الزحف على القدس، وبعدما عرف موقف أمراء جيشه، فقد أراد اتخاذ موقف الدفاع داخل القدس وعقد لهذه الغاية مجلسًا حربيًا ضم كبار قادة جيشه وافتتح صلاح الدين ذلك المجلس بخطاب الحضور بقوله: «الحمد لله، والصلاة على رسول الله، اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة في ذمكم، فإن هذا العدو أمن له من المسلمين من تلقاه إلا أنتم، فإن لويتم أعنتكم – والعياذ بالله - طوى البلاد كطي السجل للكتاب، وكان ذلك في ذمتكم فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا، وأكلتم بيت المال، والمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام».

ورد القادة على صلاح الدين بكلام حماسي عام طيبوا به خاطره، وتفرقوا عنه، ولكن ما لبثوا في مساء ذلك اليوم أن أبلغوه أنهم بعد اجتماعهم ببقية قادة الجيش، رفضوا فكرة أخذ الموقف الدفاعي» وقالوا: لا **مصلحة** في ذلك فإنا نخاف أن نحاصر ويجري علينا ما جرى على أهل عكا، وعند ذلك تؤخذ بلاد الإسلام أجمع، والرأي أن نلقي مصافًا، فإن قدر الله تعالى أن يهزمهم ملكنا بقية بلادهم،

وإن تكن الأخرى سلم العسكر، ومضى القدس، وقد انحفظت بلاد الإسلام بعساكرة مدة بغير القدس».

ويصف ابن شداد حال صلاح الدين عندما بلغه موقف القادة هذه بقوله: فشق عليه هذه الرسالة، وأقمت تلك الليلة في خدمته حتى الصباح، **وهي من الليالي التي أحياها**، وكان عنده من القدس أمر عظيم لا تحمله الجبال، ولما قارب الصبح أشفقت عليه وخاطبته في أن يستريح ساعة».

ومن جديد تم استئناف المفاوضات بين الطرفين التي أثمرت أخيراً باتفاق عرف باسم «صلح الرملة» تمت الموافقة عليه «صبيحة الثالث والعشرين من شعبان» سنة ثمان وثمانين وخمسمائة (٣ أيلول ١١٩٢م)......بعدما أبرم الصلح «غشي الناس من الطائفتين من الفرح والسرور ما لا يعلمه إلا الله تعالى». لكن صلاح الدين كان على عكس الناس حزيناً ذلك أنه كما ذكر ابن شداد «إن الصلح لم يكن من إيثاره، فإنه قال لي - رحمه الله في بعض محاوراته في الصلح: أخاف أن أصالح وما أدري أي شيء يكون مني، فيقوي هذا العدو، وقد بقي لهم هذه البلاد، فيخرجون لاستعادة بقية بلادهم، وترى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد في رأس قلته - يعني حصنه - وقال: لا أنزل، ويهلك المسلمون». [حطين/ زكار/ ١٨٢-١٨٤].

هذه المرة لم يكن التحدي هو مصالح الذوات فقط إنما هو خطر يتهدد أصل الذوات، المخاطرة هذه المرة ليس حدوث الفشل أو الهزيمة إنما الإبادة.

مثل هذا التحدي لا تكفي له مثل هذه المعالجة ولاتصلح له مثل هذه النوعية من الرجال.

إنها تحتاج لتربية أعمق وأطول ولرجال من نوعية أخرى إنها نوعية الرجال من أمثال أهل بدر أو هؤلاء الذين اجتازوا مصفاة طالوت، أو قوم دوافعهم على شاكلة جيش يوشع بن نون، أو صدر المرابطين، أو (مشيخة الغزاة) الأندلسية، أو إخوان الجزيرة.

إن ثلاثية القيادة في الحالين واحدة لكن شتان بين النسب في خلطها.

فالغذاء الملكي تنال منه يرقات الشغالات لكن الملكات لا تأخذ غيره والذكور أكثر من هذه وأقل من تلك.

هذه نقطة فارقة يجب أن نضعها في حسباننا ونحن نعتبر لنضع برنامج عصرنا.

فمن لا يملك أصلاً لبلورته فهيهات أن يجاب حين يصرح حين الكرب (يا أصحاب البيعة).



باب: واقع التحدي اليوم وبالأمس

الثالوث القذر

إن حال الأمة لا يخف على أحد، سواء واقعها المعاش أو تصورها لحقيقة دينها المفروض، ولو حدثت مقارنة في ذلك المضمار بين الخلف والسلف لظهرت أكثر وضوحا تلك الفجيعة الكبرى ﴿ **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا** ﴾ [سورة مريم: ٥٩- ٦٠]. ﴿ **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ** ﴾ [سورة الأعراف: ١٦٩ - ١٧٠].

بل أن جناب التوحيد ذاته الذي هو أخص خصوصيات ذلك الدين لم يسلم، فهؤلاء يطلبون من الأضرحة ما كان يطلب من اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، وهؤلاء لا يجدون غضاضة في حمل الكافة على التحاكم إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به.

وكثيراً ممن سلم قد تجرع من الشهوات ما جعله في غفلة ومن الشبهات ما جعله في ضلال.

وبالرغم من كل ذلك تجد التبجح بلسان الحال بل أحيانًا بلسان المقال (سيغفر لنا) وفي الاعتماد على الأماني دون عمل يصدقها، استوينا نحن وأهل الكتاب ﴿ **لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا** ﴾ [سورة النساء: ١٢٣].

هذه الحالة المزرية تعمل على استدامتها وترسيخها تحالف الأيدي القذرة، التي تعمل أحيانًا في خفاء وعند التمكن تستعلن، يد العدو الخارجي المستكبر الخطير، ويد العدو الداخلي المنافق المهيمن الأخطر، دمية الأول، الفرق الضالة ونداء الغواية المعسول، من أجابهم استدرج للباب، باب جهنم، بالأمس كانت الفرق كالمعتزلة الذين يقدمون العقل على النقل، والباطنية وما أدراك ما الباطنية، والخوارج يكفرون بالمعصية، والمرجئة لا يكفرون من كفره الشرع، و... و.... واليوم يلحق بهم دعاة الشعوبية في ثوبها الجديد، وغيرهم من فصائل العلمانية، كالغوغائية، والإباحية، .... الخ.

هذه الفرق لا تدع فرصة كالسوس ينقض على آل بيت تركوا قصرهم الذهبي للأكواخ الخشبية.

ويتخفى كل هؤلاء خلف عباءة (بلعام) تصديقًا لقول المصطفى ﷺ: «**إن أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان**».

وهناك من الشيوخ من هو حريص على أن يكون ذلك الرجل ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الأعراف ١٧٥-١٧٦].

ويتحالف كل هؤلاء أو بالأحرى يستخدمون أهل البغي والشهوات، أو كما يقول القاضي الفاضل في رسالة على لسان صلاح الدين للخليفة العباسي: (... وإذا احتمعت في الشام أيد ثلاث: يد عادية ويد ملحدة ويد كافرة، نهض الكفر بتثليثه، وقصرت الإسلام يد مغيثه). سبقت

كل هؤلاء يتربصون بأي محاولة لتغيير الأوضاع. تجري محاولات تلوا محاولات للبعث تواجه قبل الترعرع بالإجهاد أو التضييق، بالأمس وجهت السهام لجهود نظام الملك وابنه فخر الملك و... و... و....، واليوم لا يخفى

ما يحدث بين الحين والحين، فأحجار المنجنيق لا يسلم منها البنا أو البناء.

(مثل أمتي كالمطر لا يدري أوله خير أم آخره)

والمد والجذر سنة في حياة الأمم ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

لكن لا بد من فئة تثبت حين الهزيمة وتصمد عند الخور وتتيقن الوعد عندما يظن بالله الظنون، يستطيل عليها عدوها فتعتصم بـ ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ فهي دائمًا تستجيب وتجتمع بالرغم من القرح، فإنما هي جولة حتى وإن وصل الأمر لحال الردة العامة الحقيقية - التي لم تحدث والحمد لله إلا مرة واحدة - جولة لها ما بعدها فلا خوف طالما تنادت الفرقة الناجية فتولت القيادة الطائفة المنصورة.

هكذا نكون قد اقتربنا من جوهر المشكلة.

فمن يصلح الملح إذا الملح فسد؟

أن يوجد أن يتعارف هؤلاء فإذا تعارفوا اجتمعوا فتوحد جهدهم فتوحدت الأمة عليهم بإذن الله، هذا ما أمر به الشرع ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ

ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانًا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ولكن لكي يتم الشرع – أي شرع – لا بد له من رجال، فياله من دين لو كان له رجال.

ولكي يتم حمل القدر الكافي عليه لا بد من سياسة شرعية تجمع أصحاب الولايات من المسلمين، إذ أنه لا اعتبار لولاية منافق أو مرتد ولو حمل في يده صولجان السلطان.

امبراطورية الحارات

المشكلة أن العصر – كذلك العصر محل البحث – هو محل تلك الظاهرة التي أسماها البعض ظاهرة أمراء الأحياء الذين استعاروا الألقاب الفخمة أو أعطيت لهم من عصاباتهم ﴿ تحسبهم جميعًا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ﴾ [الحشر: ١٤].

يجتمعون في السمت لا في القلب فكانوا شيعًا فكان لابد من أن تحقق هذه المقدمات النتيجة ﴿ أو يلبسكم شيعًا ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم

يفقهون﴾ [الأنعام: ٦٥]. فهل ينتظر من شيع تحزبت على شخوص إلا بأس يكون بينهم.

اختزلوا الدين - لو كان ذلك على سبيل التخصص فلا بأس - ولكن هؤلاء اعتبروه مجرد مدرسة، وهؤلاء وجدوه تربية تربية مريد أعمى وشيخ لا يسأل، وهؤلاء يرونه فقط وزارة للشئون الاجتماعية، وهؤلاء قالوا السياسة السياسة، ثم تبحث عن المدرسة عن الحوزة الصوفية عن وزارة الشئون الاجتماعية فتجد أن الأكواخ تتشابه، أما السياسة فقد اشترطوا فيمن تصدى لها أن يكن أسمه: أحمد أو حسين ميكافيلي.

هذا عن الصغار فماذا عن بعض الكبار الذين عجزوا عن التحاور فيما بينهم لا أقصد الفصائل المختلفة بل داخل الفصيل الواحد.

فكان الاشتباك في صراع استبدلت وسائله - لنقص حجم ونوعية وقوة الولايات - فمن لا يملك السيف يملك لساناً هو أحد من السيف له دوي أعلى من دوي القنابل.

صراع لا يمكن أن تكون حقيقته شعارات الحرب المعلنة، فابحث عن شيء آخر، طلب الزعامات والواجهات قد اختلطت بالرغبات الحقيقية الصادقة لنصرة الإسلام، فالمعارك لا تتم إلا داخل الجسد الواحد جسد أهل السنة

والجماعة وانقلبت الآية دستور الولاء والبراء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٤-٥٦]، استبدلت الآية وصارت القاعدة كن مع إخوانك من الخوارج وكن مع الطاغوت من المرجئة.

باب: بقدر صلاح الدين يكن صلاح الحال

اجتزاء الدين

وما كان ليحدث هذا إلا لخلل في فهم معنى الدين مهما غلف هذا الخلل بالشعارات وبالسمت الظاهر للسلف الصالح. خلل في التوحيد والسلوك أنظر لمضمار الولاء والبراء تجد الدليل.

نزع من العقيدة الشمول والحيوية ولم يترك لها إلا الدائرة النظرية طالما ظلت لا تكلف شيئًا، وإلا أعيد تمييع ما يلزم منه ثقل والله يقول ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾.

فأين هذا التوحيد بربك مع توحيد محمد ﷺ وصحبه الكرام وأبيه إبراهيم الخليل.

اضطراب عن الواسطية في مسائل الكفر والإيمان، رافع لواء العصمة يسراه ملوثة بغبار الإرجاء ويمناه ترمي بمشابهة الخوارج ثم اشتباك اليمنى مع اليسرى كاشتباك الخوارج والمرجئة، وبدلاً من الالتزام بما سطره سلف الأمة وعلماء التابعين ومن تبعهم من العلماء الأفذاذ وهم كثير جداً، نجد مؤلفات ونشرات هذا يكتب بالهيروغليفية رداً على النشرة المكتوبة بالسريانية.

واختزل ذلك المصطلح الشرعي الشريف (الفقه) في جزء منه (هام جداً – لكنه جزء لا كل) اختزل ذلك اللفظ النبوي في المصطلح الحادث فأصبح (هو معرفة الأحكام العملية من أدلتها التفصيلية).

هذا هو الفقه وهذا هو الفقيه فأين هذا من حديث المصطفي ﷺ : **«من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»**، فبهذا المفهوم ما هو الدين؟! وما هو نطاق سلطانه؟

صار علم القرآن تفسيراً هو علم الزهد، الزهد فيه لا الزهد للتفرغ له.

ويكاد يكون تعديل السلوك وقف على المبتدعة



وصار أهل الحديث هم أهل المصطلح، لا من عمل به في كل ميدان، ليشمل المكان والزمان والحياة والممات جنبًا إلى جناب القرآن ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، وليس المقام مقام تفصيل إنما مقام إجمال.

ما نريد أن نقوله أن جل خلافات جيل الصحوة ليس خلاف بدعة / سنة بقدر ما هو خلاف ناتج عن ضعف تمثل منهج السلف الصالح من أهل السنة والجماعة في عناصره ونسبها من حيث الأهمية والأولوية واليقين بكفايته لكل واقع ونازلة.

يظهر هذا جليًا: في اختلال سلم الأولويات، اختلال في الموازنة بين الكليات، قصور في تصور الشمول والأولويات والموازنة لمن يرى أن هناك شيء أسمه الشمول والأولويات والموازنة.

والآفة الكبرى عدم إتباع العلم العمل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣].

أتحصد غير ما تزرع؟!

وتأمل حديث إرسال معاذ إلى اليمن يتجلى لك الكثير من هذا الخلل الشرعي المنهجي (داخل دائرة أهل السنة أنفسهم) خلل كان من نتائجه - ولا بد أن يكون - خلل مكافئ في مفاهيم التراص والتشاد والترابط بين كياناته.

وبدلاً من جسد واحد يتداعي أعضاؤه بالسهر والحمى إذا اشتكى منه عضو أصبح السهر والحمى هو النتيجة الطبيعية للحروب بين أعضاء الجسد الواحد.

فلا تجد على مستوى الكرة الأرضية وزنًا لأهل السنة والجماعة يتناسب مع عددهم وإمكاناتهم، مقارنة بالمبتدعة والرافضة وأهل الكفر وأصحاب المذاهب الأرضية - في وقت أصبح العالم كله قرية صغيرة - بل الذي تجده للأسف في القرية الواحدة حقيقة لا مجازاً على طول وعرض بلاد المسلمين صراعًا بين أهل السنة والجماعة صراعًا لا يشفع لأحد الطرفين أن يكون هو الأقرب للسمت الظاهر لسلفنا الصالح فإن الظاهر والباطن معًا هما دين الإسلام، لكن حرص السلف على الوحدة والائتلاف والأخوة لا يسبقه في

سلم الأولويات عند القوم إلا التوحيد والسلامة من البدع الحقيقية - الحقيقية فقط - فإن هؤلاء بصراعهم يؤدون في المال دوراً هاماً لخدمة المبتدعة بل والطواغيت.

ولن يشفع لأحدهم الجهل بهذه الحقيقة.

أين القدوة؟

هنا يبرز تساؤل هام هل هذا التشابه بين واقع الأمة الحالي والسابق - في مجال التشرذم وصعوبة الاضطلاع بالواجبات الشرعية تحت ضغط هيمنة عدو الإسلام الظاهر والباطن - يبرر الاقتصار على نموذج صلاح الدين كوصفة علاج؟!

الإجابة أن هذا غير مراد لأنه غير صحيح! فهناك الكثير من الخير في كل تاريخ الإسلام وأعظم العبر ليست إلا في سيرة الصدر الأول الرعيل الأعظم.

وإن كان المتمكن من دينه يجد العبرة في كل تاريخ صادق، لكن تشابه الواقع لابد أن يدفع لمزيد اهتمام فإن السنن لا تتبدل ﴿ **سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** ﴾ [الأحزاب : ٦٢]

﴿ اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ [فاطر : ٤٣].

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ [الفتح:٢٣]

التشابه هو ما دفع أعداء المسلمين للاهتمام بهذه الحقبة سواء من تلك الإمبراطورية التي كانت لا تغيب عنها الشمس وباقي الكتلة الغربية وكذا أحفاد القردة والخنازير الآن.

أمة لها رسالة

أننا نواجه نفس التحدي بل أشد !

أمة الإسلام أمة المبعوث رحمة للعالمين تقاد من قبل عدوها منهم من جاهر و منهم من نافق، دمى تُحرك فتتحرك، هذه سيما السوط، زرقة القيد، صرخة العبد. فكيف يمكن أن يوجد من يصحح فيجدد للأمة دينها على منهج السلف، يوحدها على التوحيد مستجيبا لقوله عز وجل ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٣].

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٦].

فتنهض من كبوتها لتقول من جديد بقول خريج مدرسة رسول الله ﷺ ربعي بن عامر رضي الله عنه: (إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة).

كيف يمكن لكيان ما (أو اتحاد ما) أن يكون ذلك الربان الذي يقود سفينة الأمة بعد إصلاحها لتجتاز محيط التشرذم والضياع وتدفع أعاصير هيمنة العدو الخارجي ومكر العدو الداخلي.

ويُلزم البحارة بالطاعة والالتزام خصوصا في وقت الشدة والعسرة (في المنشط والمكره).

وما هي صفات ذلك الكيان (المنهجية ، العضوية ، الوظيفية)؟.

وهل يستطيع أن يقدم للأمة (نشطائها) برنامج عمل مقبول ومناسب؟

وما علاقة كل ذلك بنظرة أعدائنا لصلاح الدين؟

باب: صلاح الدين الرعب الأسود

عندما يختلط الرعب بالاحترام

عندما تتأمل نظرة عدونا لبطلنا تتعجب إنها مفعمة بالإجلال المليء بقمة الرعب!

« صلاح الدين ذلك المغامر الكردي الذي أثبت للصليبيين بأن الله قد يقف إلى جانب كافر » كان هذا هو عنوان العدد الخاص لمجلة التايم الأمريكية في ليلة الألفية الثالثة، حينما اختارته شخصية القرن الثاني عشر ضمن شخصيات أخرى لقرون الألفية، وذكرت أن شخصيته قد صدرت في الروايات الرومانسية للسير (والتر سكوت) في شكل شخصية (الخصم الجدير بالاحترام الفارس الأسطوري) [الأهرام ١٤ مايو ٢٠٠٠].

ولكن ماذا عن من يخشى عاقبة الصليبيين ؟ سوف نورد مجموعة من الأخبار والتصريحات دون تعليق:

« شكلت السلطات الإسرائيلية مجلساً من ٣٠ خبيراً من المتخصصين في علم النفس والتاريخ والاجتماع والسياسة والحرب لدراسة الظروف التي ظهر فيها صلاح الدين الأيوبي، وستكون مهمة المجلس دارسة إمكانية ظهور

« صلاح الدين » مسلم جديد في صورة زعيم مسلم، أو جماعة إسلامية لمجابهة الخطر حال ظهوره » .[نشرة البراق الصادرة عن دار البراق للوثائق الإعلامية والتحقيقات الصحفية، عدد ١٨، ٣٠ يونيو ١٩٨١] .

ويقول النائب الليكودي (داني نافيه) : « يجب أن يتخلوا عن هذا التاريخ، لا يمكن أن نركن إلى سلام مع أناس ما زالوا يعتبرون صلاح الدين الأيوبي رمزا تاريخيا لهم، يجدر بنا ألا نتجاهل هذه الأمور الهامة، فمن يعتز بانتسابه إلى صلاح الدين هو في الحقيقة غير جاد في التوصل للسلام؟! » . أضاف عليهم أن يتذكروا أنهم ما داموا يتوقون لصلاح الدين الأيوبي وتاريخه فإنهم قد أخرجوا أنفسهم من دائرة شركاء إسرائيل في أي تسوية ممكنة للنزاع » !! . [للإذاعة الناطقة بلسان المستوطنين « عروتس شيفع » ٢٠-٢-٢٠٠١] .

ووصف نافيه – الذي تولى الإشراف على المفاوضات مع السلطة الفلسطينية في عهد حكومة نتنياهو – صلاح الدين الأيوبي بأنه يمثل رمز التحدي العربي الذي استطاع قهر الغرب الذي تمثل في الصليبيين وأرغمهم على الانسحاب من الشرق العربي تحت قوة السلاح » .

من ناحية أخرى كشف النائب الليكودي النقاب عن أن حكومة نتنياهو السابقة قد أجرت مداولات مكثفة حول سلسلة من المطالب كان من المقرر أن تتقدم بها للولايات المتحدة، وجميعها تتمحور حول الضغط على الدول العربية لإجبارها على تخليص برامجها التعليمية من التركيز على دراسة الرموز التاريخية التي تمثل مقاومة الغرب والصهيونية ».

وتساءل عضو الليكود: « لماذا يدعو خطباء المساجد - في طول الوطن العربي وعرضه - ربهم أن يبعث لهم قائدا على غرار صلاح الدين الأيوبي؟ ماذا يعني هذا؟ هذا يعني أنهم يريدون رمزا تاريخيا على غرار صلاح الدين لطردنا والقضاء على الحركة الصهيونية بنفس الطريقة التي تم فيها القضاء على الصليبيين في الماضي ».

وفي تحريض واضح ضد خطباء المساجد وجه نافيه تحذيرا ضمنيا للحكام العرب قائلا: إنه ليس من مصلحتهم (الحكام) أن يشيد خطباء المساجد بتاريخ صلاح الدين الأيوبي، وأن يتعلق طلاب المدارس بنهجه، فهذا ينطوي على خطر على مستقبل هذه الأنظمة..

في غضون ذلك طالب المستشرق اليهودي (يهشوع



بن بورات) رئيس الوزراء الإسرائيلي المنتخب إريل شارون أن تتوجه الحكومة الجديدة في إسرائيل لدول العالم وعلى الأخص الولايات المتحدة للضغط على الدول العربية بـ « تنقية مناهجها التعليمية وبيئتها الثقافية من كل صلة بصلاح الدين الأيوبي وما يمثله » .

وقال (بن بورات) إن على إسرائيل أن تطالب العرب باستبدال أسماء الشوارع التي أطلق عليها اسم صلاح الدين الأيوبي بأسماء أخرى، وكذلك أسماء المدارس والميادين والمؤسسات . ووصف إصرار العرب على التمسك بتراث صلاح الدين الأيوبي بأنه « إصرار على ثقافة العنف والحرب »

http://www.islam-online.net/arabic/News/2001-02/23article5shtml

(الملاحظة الأخيرة مثيرة للغاية، وصاحبها هو حاييم هنجبي الروائي والكاتب الذي ينتمي إلي مدرسة ما بعد الصهيونية، الذي ذكر أنه تعرف قبل خمس سنوات على الجنرال موشيه كلاو، الذي هو واحد من أهم أصدقاء شارون ورفاقه منذ التحق بالجيش الإسرائيلي قبل العام ١٩٤٨ . وقد دأب حاييم علي زيارته إلي حين وفاته قبل ثلاث سنوات . وفي إحدى الزيارات وجده مكتئبا

ومغموما، بينما كان ممسكا بكتاب في يده. وحين سأله عما به، قال كلاو إنه لم يعد يغمض له جفن، بعد أن تعددت قراءاته لملابسات معركة حطين التي انتصر فيها العرب علي الصليبيين. خصوصا بعدما لاحظ أن أوضاع العرب والمسلمين في المرحلة التي سبقت المعركة كانت لاتقل سوءا عن وضعهم الآن. ومع ذلك حققوا نصرا غير من شكل المنطقة. ثم أضاف: إنني أخشى أن تعود الكرة مرة أخري، وقد يكون طريق الذي قدم من كردستان (يقصد صلاح الدين) مهيأ لقادم آخر، يأتي ليغير ما عليه الحال الآن). ما رأيكم، دام فضلكم؟ [الأهرام ٢٠ مايو ٢٠٠]

مما يخافون؟

إذن هم خائفون من عودة صلاح الدين؟ بالطبع لا فمن دخل القبر لا يخرج منه إلا يوم يبعثون، إنما هم خائفون من أن نعيد التاريخ نفسه بمؤسسة قيادة لها برنامج عمل، برنامج عمل في ذلك النوع الذي يعبر عنه الداهية برنا رد لويس في دراسة له، فبعد مقدمته عن الحركات الإسلامية في العالم العربي يقول: (مما تقدم تبرز نتائج عامة محددة: فالإسلام لا يزال الشكل الأكثر فعالية في الرأي العام في دول العالم

الإسلامي وهو يشكل اللون الأساسي للجماهير، ....

إن الإسلام قوى جدا ، إلا أنه لا يزال قوة غير موجهة في ميدان السياسة الداخلية .

وهو يبرز كعامل أساسي محتمل في السياسة الدولية وقد جرت محاولات كثيرة في سبيل سياسة تضامن إسلامي أو جامعة إسلامية .... إلا أنها أخفقت .... وأن أحد الأسباب المهمة هو عجز الذين قاموا بهذه المحاولات في إقناع الشعوب الإسلامية بجدية ما يريدون .

ولا يزال المجال مفتوحاً لبروز قيادات أكثر إقناعاً وإن هناك أدلة كافية في كل الدول الإسلامية قائمة فعلاً تدل على الشوق العميق الذي تكنه الشعوب الإسلامية لمثل هذه القيادات والاستعداد العظيم للتجاوب معها .

القيادة التي تخدم الإسلام بما يقتضيه العصر من تنظيم وعلم . إن غياب هذه القيادة قد قيد حركة الإسلام كقوة منتصرة، .... من أن تكون منافساً خطيراً على السلطة في العالم الإسلامي .

لكن هذه الحركات يمكن أن تتحول إلى قوى سياسية

محلية هائلة إذا تهيأ لها هذا النوع الصحيح من القيادة أ.هـ. ولا تعليق.

باب: ورقة عمل

فيما يجب أن نفكر؟

هل يمكن رسم معماري في دقة الفسيفساء يعيد توظيف الكيانات المتصارعة بل يعيد صياغة بنيتها ومن ثم توجهها لتتحول إلى كيانات وسيطة ممهدة للوصول في اللحظة المناسبة للكيان الذي به يتم التصحيح (وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب) وإن تعذر الواجب انتقل الوجوب للإعداد.

وحتى ذلك الوقت هل يمكن أن يسود مفهوم تقسيم الأدوار جنباً إلى جنب مع مفهوم تحريم الصراع داخل صف الإسلام.

باختصار أنى يوجد ذلك الكيان؟: الذي يدرك الخلل ويملك الدواء يعرف واقعه مسلح بالبصيرة، الذي يستطيع أن يبدأ ليأخذ الكتاب بقوة مستعيناً بصاحب الأمر واثقاً من الوعد ﴿ **الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ**



وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾

[الحج: ٤٠، ٤١]

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور : ٥٥].

يستجلى النص بمنظار الصدر الأول ليتبع العلم العمل ويسوس الأمر بسياسة شرعية تستبصر الواقع.

ولا يعرف السلفية بأنها (الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة) ذلك التعريف القاصر الخطير، إنما يعرفها بأنها (الكتاب والسنة بتطبيق السلف الصالح) القرن الأول ثم باقي القرون الخيرية ثم من سار على نهجهم إلى يوم القيامة في العلم والعمل وبهذا الترتيب.

لقد فعلها

لقد استطاع صلاح الدين أن يعيد ترتيب البيت من الداخل من خلال إعادة ترسيم خريطتي القيم والمصالح.

استطاع أن يجعل منهجه يهمن ويبسط نفوذه على قوى الصف وقيمه.

هذه الهيمنة المنهجية صارت ممهدة ومدعمة للهيمنة الحركية (القيادة) التي من ثم تعطى مزيداً من الزخم للهيمنة المنهجية.

وهكذا تتسع المظلتين دواليك.

فحل في آن واحد مشكلتي القبول للبرنامج وللشرعية.

شرعية تقود من خلال برنامج عمل، تزداد الثقة به مع كل نجاح جزئي، ويجد الجميع لهم مكانا ليساهموا في هذا البرنامج فينتسبوا له وينسبوا ثماره لهم.

لقد وجدت هذه العناصر:

١- منهج شرعي يحكم السياسة الشرعية المستبصرة للواقع، هو أصل الشرعية السياسية

٢- كيان يتسع لكفاءة كل الكوادر، يحول كل صالح من (هم) إلى(نحن).

٣- برنامج عمل مقبول واقعي واضح مرن يقتنص الفرص.

٤- إعلام يوضح الطريق، يرشد المشمر ويفضح المثبط.

٥- تحالف محكوم بخريطة مصالح وقيم مرشدة، ليصب في اتجاه واحد طوعاً وكرهاً.

٦- مؤسسات تربوية شرعية لأهل السنة والجماعة تستوعب الأمة من القاعدة إلي القمة.

٧- قبل كل ذلك نية خالصة وتقوى صادقة وصبر ومثابرة من هيئة قيادة من ذوي الأيد والأبصار لها رسالة تتمثلها فتكون قدوة للضعيف والمتشكك.

(طبقة قيادة شورية قدوة ذات رسالة - على رأس كوادر فعالة - تملك برنامج عمل ومنهجًا مهيمنًا وإعلاماً فعالاً وكيانًا يسع كل كفاءة - لتعطي ولتأخذ - حسب منظومة متكاملة - ومؤسسات تربوية شرعية لعموم الأمة).

فمن يكذب الوقائع: (استقر الأمر لصلاح الدين في مصر والشام وكثير من مدن أقاليم الجزيرة، وقد مرض في إحدى حملاته على إقليم الجزيرة فنظر لأن شفاه الله ليسرفن كل همه لقتال الفرنجة وفتح بيت المقدس وليقتلن (صاحب الكرك) الصليبي بيده وكان هذا النذر بإشارة من وزيره القاضي الفاضل.

بعد هذا بدأ بحملات مركزة على المدن القريبة قبل أن

يظفره الله بالفتح الأعظم استرجاع بيت المقدس، فقد انتصر على الفرنجة في موقعة (مرج عيون) سنة ٥٧٥ هـ وموقعة (بانياس) وأسر رؤساءهم وضمر حصن الأحزان في (صفد)، ومازال يناوش الفرنجة حصناً بعد حصن، حتى تجمع عنده جيش كبير في سهل حطين حيث كانت الموقعة الكبرى التي كسرت عظام الصليبين ومهدت لفتح القدس، (وفي السابع والعشرين من رجب من هذه السنة ٥٨٣، وفي يوم الجمعة فتح بيت المقدس، وعاد الآذان إلى منابرها، وعاد المسجد الأقصى بعد غياب إحدى وتسعين سنة، وفرح المسلمون فرحاً عظيماً، وذهبت البشائر إلى كل مكان، (فمن شهد القتلى قال: ما هناك من أسير، ومن عاين الأسرى قال: ما هنالك من قتيل، ومذ استولى الفرنج على ساحل الشام ما شفى للسلمين كيوم حطين غليل) [الروضتين] وكان من الأسرى صاحب الكرك (أرناط) الذي كان يؤذي الحجاج وفي نيته احتلال المدينة النبوية فقتله صلاح الدين بيده ووفى بنذره (وجلس السلطان متواضعا وقورا بين الفقهاء وأهل العلم، وكان نور الدين رحمه الله يتشوق لفتحها وقد هيأ منبراً عظيما لهذه الغاية، فجيء

بالمنبر وخطب في الجمعة التالية القاضي بن الزكي، وقد رتب صلاح الدين أمور المدينة وأنشأ المدارس ووسع المسجد وطهره من الأقذار والأنجاس، وكان الجهاد قد غلب على السلطان فلم يستقر في القدس إلا قليلا ، ثم بدأ جولة أخرى في الفتوحات، فأتم فتح صيدا وبيروت، جبلة، اللاذقية، حصن صهيون، حصن بغراس، ورجع بعدها إلى صفد والكرك ففتحها، ثم قاعة الشقف........الخ) [٩٠ العبدة]

لقد وجد الخيط الجامع لحبات اللؤلؤة المتناثرة فلم يبق إلا أن تتألق براقة على جيد الإنجازات المتوالية فمن نصره ينصره. ﴿ **إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾ [آل عمران : ١٦٠].

فهرس

الموضوع	صفحة

الموضـوع **صفحة**

الموضـوع	صفحة

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة

الموضـوع **صفحة**

من أحدث مطبوعات دار الإيمان

شجرة الإيمان

فضيلة الشيخ الدكتور

أحمد فريد





من أحدث مطبوعات دار الايمان

التقوى

فضيلة الشيخ الدكتور

أحمد فريد





من أحدث مطبوعات دار الإيمان

الكواشف المضية

عن لآلئ رسالة العبودية

لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية

بقلم

ياسر برهامي

غفر الله له ولوالديه ولسائر المسلمين

دار القمة
لتوزيع الكتاب والشريط الإسلامي
فاكس: ٥٤٥١١٦٩ ت: ٥٢٢٢٠٠٢

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩



فاكس: ٢٤٣٣٢٤٩
محمول: ٠١٠ ١٩٠٠٠٣٨٠